الفصل الرابع

العناصر البارزة فى الأدب المهجرى

توطئة :

بين سائر الطفرات التى عرفها تاريخ الأدب العربى على طوله ، تمتاز الطفرة ، أو المدرسة المهجرية بوفرة ما فيها من العناصر الجديدة القوية ، فى القالب وفى الجوهر معاً ، مما يجعل سائر الطفرات السابقة تكاد تتضاءل أمامها . فقد استطاعت أن تقفز بالأدب العربى قفزة واسعة جداً ، أوصلت الكثير من إنتاجه – وعلى الأخص من إنتاج المهجريين أنفسهم – إلى مستوى أرقى الآداب العالمية الحية ؛ وكان الأدب العربى قبلهم ما يزال يزحف زحفاً سلحفائياً ، وهو ينوء بما يجرجره من ركام الألفاظ والأساليب القديمة البالية ، التى تكبله وتثقله فتعوق سيره وتكاد تشل حركته .

ولعل أبرز العناصر الحية التى تميزت بها مدرسة المهجر الأدبية تتلخص فى تسع مزايا كبرى : اثنتان منها فى القالب التعبيرى ، وهما : (١) التحرر التام من قيود القديم . (٢) الأسلوب الفنى والطابع الشخصى المتميز ؛ والسبع الباقية هى فى الموضوع ، أو جوهر العمل الأدبى ، وهى : (١) الحنين إلى الوطن . (٢) التأمل . (٣) النزعة الإنسانية . (٤) عمق الشعور بالطبيعة . (٥) براعة الوصف والتصوير . (٦) الغنائية الرقيقة فى الشعر . (٧) الحرية الدينية .

وقد تكون هناك ميزات أخر نستطيع أن نسجلها للأدب المهجرى ، غير أنها تأتى فى المنزلة الثانية بعد هذه الخصائص الكبرى الرئيسية . ولذلك سنجتزئ بما تقدم ، فهو حسبنا فى هذه الدراسة .

١ – التحرر من قيود القديم

كان الأدب العربى الحديث ، قبل أن يطلع علينا المهجريون بأدبهم القوى العميق المشرق ، يسير على أنماط من الأساليب القديمة التى يهمها اللفظ أكثر مما يهمها المعنى ، وتعنى بكثرة المحفوظ من الألفاظ والصيغ والتعابير القديمة . وكان الأدباء والكتاب يتبارون فى تقليد القدماء فى ما يطرقونه من المواضيع : شعراً ونثراً ، ويجرون على الأساليب عينها التى درج عليها أولئك القدماء ، والتى لا تلائم إلا عصورهم الماضية . فمن معارض للمقامات يحاول أن يتفوق عليها بما يحشو به مقاماته من خشن الألفاظ وغريبها ، ومعقد التعابير وقديمها ؛ ومن راغب فى أن يكون صاحب قاموس جديد ، أو شارحاً لقاموس قديم ، أو جامعاً لألفاظ مترادفة ؛ ومن واضع لأرجوزة فى قواعد اللغة ؛ ومن مقلد لشعر المتنبى ، أو أبى تمام ، أو ابن الرومى ، أو غيرهم من شعراء العرب الأقدمين ؛ وهكذا دواليك . أما الحيوية ، وأما المعانى والأفكار ، فأشياء تأتى على هامش الهامش ، وقلّ من يستطيع أن يفطن إلى أنها هى التى تؤلف الأدب ، وليس سواها . ولذلك ظل الأدب العربى فجًّا متأخراً ، لم يتميز كثيراً عن الأدب الذى أنتجته فترة الانحطاط فى تاريخ الأمة العربية ؛ فإن ارتقى عن ذلك كان تقليدا لأدب العصور السابقة ، ولا سيما العصر العباسى .

فلما ظهرت المدرسة المهجرية بخصائصها الجديدة وعناصرها الحية ، وثورتها الجريئة على كل قديم لا يصلح للحياة ولمسايرة العصر ، تطلعت إليها الأبصار دهشة ، فرأت فئة من ذوى الأقلام الفتية الخلاقة قد تحررت من عبودية التقليد ، ونفضت عنها مذلة الجمود على ما اصطلح عليه الأقدمون من أساليب وتعابير ، وحررت إنتاجها الأدبى من قيود الألفاظ ، وجعلته يسير فى موكب الحياة كما تسير الحياة نفسها : قويًّا ، جديداً دافقاً ، يستمد من الحياة ، ويتسع للتعبير عن الحياة بألفاظ الحياة نفسها : الحياة المتجددة المتطورة دائماً .

وبينما كان قصارى الكاتب العربى فى الشرق أن يبرع فى تقليد القدماء إلى

حد ينال معه إعجاب إخوانه المقلدين ، طامساً بذلك أسلوبه ، وشخصيته ، وأفكاره ، كان الأدب المهجرى ، وعلى الأخص أدب الرابطة القلمية التى كان أبرزَ أعضائها جبران ونعيمه وأبو ماضى ونسيب عريضة ، وكان كذلك أدب الريحانى ، يشق طريقه باندفاع وجرأة ، كما تشق أشعة الشمس طريقها إلى الكون من وراء الأفق البعيد العريض . وإذا به يسطع على العالم العربى كما يسطع نور الشمس زاهياً باهراً ، يحمل فى تضاعيفه وثناياه لقاحاً جديداً من الكنوز الفكرية الواسعة ، ومن العاطفة الإنسانية الرحيبة ، ومن الغذاء الروحى الدسم ، فى آنية يبهر بريقها العيون ، ويطرب رنينها الموسيقى العقول ، ويفتح فى حنايا القلوب تعطشاً إلى هذا الجديد البارع الجميل .

رأى الناس فى الشرق هذا كله ، فهالهم ما رأوا ، وأحدث بينهم رجة عنيفة ، فانقسموا فى تقديره إلى فريقين : فريق يؤيده متحمساً ، وفريق يناهضه متحمساً أيضاً . أما الذين أيدوا مدرسة المهجر متحمسين ، فلأنهم وجدوا فيها حيوية دافقة ، ومسايرة للحياة ، ولوناً جديداً من الأدب القوى القريب إلى النفوس على نحو لم يألفه الناس فى الشرق .

وأما الذين ناهضوها ، فلأنها جاءت تقلب إيمانهم القديم بأن يظل الأدب العربى مربوطاً « بأمراس كتان إلى صمّ جندل ! . . . » وبرهنت لهم على أنه . .

إذا قام شعــرٌ بألفاظــه تكونُ القواميسُ خيرَ الكتبْ

كما يقول نعمه قازان ؛ وعلى أن اللغة إن هى إلا وسيلة لنقل الأفكار والمعـانى ، وليست غاية فى ذاتها ، وأنها يجب أن تكون من المرونة بحيث يسهل إخضاعها للمعانى القوية الحية ، لا أن تخضع لها المعانى القوية الحية . وهذا مما لا يلائم عقلية أولئك الذين يرون أن دولاب الحياة قد وقف عند أصحاب « القبور » القديمة التى ندعوها « معاجم » ، وكانت إلى ذلك الحين لا تزال تعيش عليها ، ولها ، جماعة ممن يعيشون فى الماضى وللماضى فقط .

غير أن صيحة أولئك المعاجميين ما لبثت أن ألجمتها الأيام أو كادت ، وسار الأدب المهجرى كالجدول الرقراق العذب ، يتدفق مجدداً فى حياة الأدب

العربى الحديث ، وتتبارى الأقلام فى الشرق فى تقليده ، مما أدّى إلى تقدم الأدب العربى إلى المدى الواسع الحاضر ، الذى ننظر إليه اليوم بالارتياح والرضى .

وهكذا مضى المهجريون فى أدبهم الجديد الجرىء ، متحررين من كل ما لا يصلح للحياة الجديدة ، ومطلقين أنفسهم وأقلامهم على سجيتها : فلا يستعبدها قديم ولا يستهويها جديد ، إلا ما يرضون به بمحض اختيارهم حين يشعرون بصلاحيته للحياة . وهذا التحرر فى حياة الأدب المهجرى جعل المهجريين – وقد انصرفوا عما وضعه الأقدمون من السنن الأدبية ، وما فرضوه من الأغراض الشعرية – يبدعون فى الخلق والتجديد والابتكار : خلق وتجديد وابتكار فى الشعر ، وخلق وتجديد وابتكار فى النثر ، من قصة ومقالة وكتاب ؛ ومن نقد ، ووصف ، وتحليل ، وتأليف ، وما إليها . وهكذا كانت مؤلفات جبران جديدة باهرة ، لم يعرف لها الشرق العربى مثلا فى ما سبق . وكان « غربال » نعيمه دستوراً أدبيًّا جديداً لم يألفه الشرقيون . وكانت « جداول » أبى ماضى تحمل فى تضاعيفها ألحاناً ومعانى ترتفع بالأرواح بعذوبة ولطف لم يعهدها الشرقيون فى الشعر العربى . وبالإجمال كانت المدرسة المهجرية المتحررة جديدة لم يألفها الشرق العربى المحافظ . ولا غرابة فى ذلك ، فهى خلاصة العناصر القوية الحية فى روحانية الشرق ، مسكوبة فى أحدث قالب وأروعه من رومنتية الغرب العصرية الزاهية ؛ وقد وَفَّق المهجريون بينهما بطريقة فذّة ساحرة ، فكان منهما الأدب المهجرى الذى جدد حياة الأدب العربى الحديث ، وساعد أعظم مساعدة على تقـــدمه ونضجه ، وترك فيه أعظم الآثار ، وأجلها خطراً .

٢ – الأسلوب الفنى والطابع الشخصى

من أبرز ما يتميز به كبار أدباء المهجر أن لكل منهم طابعاً خاصًّا يمتاز بيسر وسهولة عن طوابع الآخرين ، وتظهر فيه شخصية صاحبه قوية بخصائصها ، على الرغم من وحدة المنبع ووحدة الغاية لدى الأكثرين .

فأغلب أدباء المهجر يغترفون من مناهل واحدة ، ويهدفون إلى غاية واحدة ، أو غايات متقاربة . فهم يغترفون من داخلهم أولا ، ويتأثرون بما يحيط بهم ثانياً ، يشعرون بالطبيعة شعوراً عميقاً ، ويحنّون إلى أوطانهم حنيناً جامحاً ، ويبحثون عن حقائق الحياة الكبرى بحثاً جاهداً ؛ يفرحون ويتألمون ، يشكّون ويهتدون ، يحبون ويبغضون ، يثورون ويسكنون . وبعبارة أخرى : يغترفون من معين الحياة الواسع مادة لأقلامهم . وأما هدفهم الذى يعملون له باستمرار وإخلاص ، فهو خلق أدب حرّ قوى يعنى بالمعانى والأفكار الكبيرة ، ولا يتقيد بالسفاسف والتفاهات التى تكبّل أجنحته القويّة دون التحليق والسمو ، وأذرعه دون أن تنفتح لاحتضان الحياة بأسرها .

ولكن بقدر اشتراك هؤلاء الأدباء جميعهم فى الاغتراف من تلك المناهل الواحدة ، والسعى إلى هذه الغاية الواحدة ، تختلف شخصياتهم الأدبية ، بحيث يظهر كل منهم مستقلا عن الآخرين . بطابعه الخاص فى التفكير أو فى التعبير ، أو فى كليهما معاً . وفى الواقع أن سمة التميز فى الشخصية المتفوقة إنما هى ميزة العظماء وحدهم فى كل ناحية .

وتميز الطابع الأدبى أو استقلاله قد انتقل بعد ذلك إلى الشرق ، فكثر بين كتابه الأدباء المتميزون بطوابعهم الخاصّة وشخصياتهم المستقلة . ففى مصر مثلا تجد طابعاً خاصاً لكل من طه حسين ، والحكيم ، والعقاد ، والمازنى ، والزيات ، وأحمد أمين ، وزكى مبارك ، وسلامة موسى . وفى لبنان وسوريا تجد طابعاً خاصاً لكل من إلياس أبى شبكة ، وسعيد عقل ، ونزار قبانى ، ومارون عبود ، وعمر أبى ريشة ، وكرم ملحم كرم ، وبشارة الخورى ، وغيرهم .

أما قبل أن يذيع الأدب المهجرى فى الشرق ، ويتأثر الأدباء بروحه الحرة ، فقد كنا نرى أكثر الأدباء يتنافسون فى الغالب فى تقليد الأساليب البيانية والبديعية العتيقة ، ليبنوا شخصياتهم الأدبية على شخصيات سابقة معروفة ، لأنها فى اعتقادهم قد أثبتت صلاحيتها منذ زمن بعيد ؛ فتأتى كتاباتهم على نمط واحد ، أو أنماط متقاربة مهما اختلفت أذواقهم ومشاربهم .

وقد تكون فى حاجة إلى بعض الشواهد على تميز الطوابع الأدبية لدى المهجريين ؛

فلذلك نرى أن نستشهد بعدد قليل من الشخصيات المهجرية البارزة ، لأن المجال لا يتسع للجميع . ونترك للقارئ أن يقابل بينها ، وأن يرجع إلى الآخرين ليستخلص بنفسه خصائصهم الأدبية الشخصية . وقبل ذلك لابد من أن نذكّر القارئ بأ نه قد لا يجد شيئاً جديداً فى الوقت الحاضر فى ما يعرض عليه ، لأنه اعتاد رؤية مثله فى ما يكتبه الكتاب اليوم ، ولكن عليه ألا ينسى أن الأساليب العربية الحديثة كلها إنما هى انبثاقات عن الأساليب المهجرية ، وربيبات لها ؛ فالمدرسة المهجرية هى التى شقت لها السبيل إلى الحياة ، وإلا فما أدرانا ما كان يمكن أن يكون من أمر أساليبنا الكتابية لولا ذلك ؛ فالأساليب والطوابع المهجرية كانت جديدة ومتميزة فى حينها ، ثم انتشرت وكثر تلاميذها ومقلدوها فى الشرق ، وبعضها لا يزال حتى الآن على جدّته وتميزه .

ولنأخذ الآن جبران أولا ، فقد كان من أسبق المهجريين إلى الظهور ، وإلى التأثير فى الأدب العربى الحديث بأسلوبه الجديد فى التعبير . وقد بهر العالم العربى بخيالاته الجميلة واستعاراته الجديدة المدهشة ، وبيانه المترقرق بأبسط الألفاظ وأعذبها ، وأوقعها فى النفوس ، على الرغم مما ينطوى تحتها فى الغالب من روح ثائرة متمردة ، حتى لقد دعى أسلوب الإنشاء العصرى الخيالى العاطفى بالأسلوب الجبرانى ، كما قدّمنا .

ولابد من أن نذكر ههنا أن جبران كان أكثر المهجريين تنويعاً فى أساليبه الكتابية : فبينما هو فى « دمعة وابتسامة » و « الأجنحة المتكسرة » يخاطب الأرواح والقلوب بلغته الوجدانية الرقيقة المتسلسلة ، الغنية بالصور والألوان الشعرية الجميلة ، تجده فى « المجنون » و « السابق » مثلا حكيماً يخاطب العقول بالأمثال ؛ وفى « آلهة الأرض » يتحدث بالرموز ؛ وفى « المواكب » يتحدث بطريقة الحوار التمثيلى ؛ وفى « النبى » نجده معلماً ومرشدا ، يخاطب الناس بلغة فيها نصيب للضمير وللروح وللعقل ، وفيها أحياناً تعابير رمزية قد يلتبس معناها على الكثيرين ، ولكنها برغم رمزيتها تترك فى روح القارئ شعوراً قريراً بجمال أسلوبها وصورها ، وبحسن وقعها الشعرى .

والغريب فى هذا أن جبران كان فى هذه الأساليب المتنوعة هو جبران الفنان

الأصيل ، القوىّ الشخصية فى فنه ، والمتميز فى طابعه الأدبى عن كل أديب آخر ؛ ذلك لأن روحه الثائرة المتمردة ، من جهة ، على كل التقاليد والشرائع الأرضية ، من دينية واجتماعية ، وكل القائمين على تنفيذها ؛ والرحيبة النبيلة ، من جهة أخرى ، بحيث ترتبط برباط المحبة الوثقى بالإنسانية كلها ، هى التى كانت تملى عليه وتوجّه قلمه مهما كان الأسلوب الذى يكتب به . ومن هنا ينتفى العجب من أن نعدّ جبران ذا طابع أدبى خاص ، مع تنوع أساليبه الكتابية ؛ فهذه الأساليب كلها هى أساليبه ، وهو الذى استحدثها فى الأدب العربى ، وجعل الرابط بينها جميعاً جمال الألفاظ ورشاقة التعبير ، وروعة الصور الخيالية الملونة ؛ وبكلمة أخرى الأسلوب الفنى الجميل . فجبران الذى يقول فى « الأجنحة المتكسرة » مثلا : « إن المرأة التى تمنحها الآلهة جمال النفس مشفوعا بجمال الجسد ، هى حقيقة ظاهرة نفهمها بالمحبة ، ونلمسها بالطهر ، وعندما نحاول وصفها بالكلام تختفى عن بصائرنا وراء ضباب الحيرة والالتباس » ، هو نفسه القائل فى « دمعة وابتسامة » : « كنت بالأمس كلمة صامتة فى خاطر الليالى فأصبحت أغنية مفرحة على ألسن الأيام . وقد تم هذا كله فى دقيقة واحدة مؤلفة من نظرة ، وكلمة ، وتنهدة ، وقبلة » ؛ والقائل فى « المواكب » :

لم أجدْ فى الغاب فرْقاً بين نفس وجَسَدْ
فالهوا ماءٌ تهادَى والنَّدَى ماءٌ رقَدْ
والشذا زهْرٌ تمادى والثرى زهْرٌ جَمَدْ
وظلالُ الحَور حَورٌ ظنّ ليلاً فرقَدْ

وهو نفسه القائل فى « النبى » أيضا : « إن الريح لا تخاطب السنديانة الجبارة بلهجة أحلى من اللهجة التى تخاطب بها أحقر أعشاب الأرض . والعظيم العظيم إنما هو ذلك الذى يحوّل هزيم الريح إلى أنشودة جميلة تزيدها محبته حلاوة وعذوبة » .

فالروح واحدة ، والتعبير الفنى واحد ، ومنهما معاً يتألف الطابع الشخصى فى الأدب . وما دمنا فى حديث الأسلوب الفنى فنودّ أن نقرر ههنا أن المهجريين

قد خرجوا عن الطريقة القديمة فى الفهم الفنى التى تعتقد أن الفن كله هو فى الرجوع إلى قواعد البديع والبيان ، وما فيهما من جناس وطباق وتورية واستعارة وغيرها ؛ وبخروجهم أطلقوا لأخيلتهم العنان ، فحلّقت حيث شاء لها التحليق ، بينما ظلت قواعد البديع والبيان القديمة فى حضيض الجمود والتقليد .

ونقطة ثانية لابد من ذكرها ، وهى أن أكثر المهجريين المبدعين لم يكونوا يهتمون بأن يجعلوا فرقاً بين لغة الشعر ولغة النثر ، لأن لغتهم كانت دائماً موشاة بألطف التعابير والصور والخيالات التى يصبح معها النثر شعراً جميلا ذا رنين ساحر . ولذلك نرى مثلا لغة جبران ولغة ميخائيل نعيمه فى النثر هما عينهما فى الشعر أيضاً ؛ وهما فى الحالتين جميلتان فى تعابيرهما الفنية الشعرية . فالشعر والنثر عندهما هما حالتان من حالات الكتابة ، أوفنّان من فنون التعبير ، على أن تكون اللغة المستعملة دائماً لغة بسيطة جميلة ، تدل كل لفظة منها على معناها بقوّة ، وتترك فى نفس قارئها رنيناً عذباً . ومثل هذا الفهم نجده حينما نطالع شعر إيليا أبى ماضى ، ونسيب عريضة ، وإخوانهما من شعراء الرابطة القلمية مثلاً ، وشعر الكثيرين – ولكـن ليس الجميع – من شعراء المهجـر الجنوبى . خـذ مثلا نعيمه ، فهل تجد فرقاً بين لغته إذ يقول فى شعره :

أخى ، إن ضجَّ بعدَ الحرب غربىٌّ بأعمالهْ
وقدّس ذكرَ من ماتوا ، وعظّمَ بطْشَ أبطالهْ
فلا تهزجْ لمن سادُوا ، ولا تشمتْ بمن دَانـــا
بل اركَعْ صامتاً مثلى ، بقلب خاشع دام
لنبكى حظَّ موتانا

ولغته إذ يقول فى نثره : « ها أنتم تنتقون من بينكم أفراداً ، فتخلعون على البعض جبة الفخامة ، وعلى الآخر العطوفة ، وعلى الثالث السعادة ، فكأن من بقى منكم ليسوا إلا خشارة الحياة . وهكذا تسكنون الذلّ فى قلوبكم ، وشفاهكم تطلب الرفعة ، وتبنون أعشاشاً للعبودية فى أرواحكم ، وألسنتكم تنادى باسم الحرية . أما كفى الإنسان مجداً أنه إنسان ؟ » .

إنها لغة واحدة فى كليهما ، أو أسلوب واحد بسيط ، ولكنه جميل فى بساطته جماله فى معانيه ، وفيه رقة وفن وشاعرية .

وأما نعيمه فى كل ما يكتبه فأسلوبه هو هو لا يتنوع ، ولغته البسيطة الجميلة الواضحة هى هى ، وروحه هى هى ، ونوع تفكيره العاطفى الخيالى هو هو . وبهذا كله يتميز طابع نعيمه الأدبى عن سواه .

ولست أرانى فى حاجة إلى أن أبين مزايا الطابع الشخصى للريحانى ، مثلاً أو لأبى ماضى ، أو لنسيب عريضة ، من أدباء المهجر الشمالى ، فهى فى رأينا أوضح من أن نحاول إيضاحها وتحديدها ؛ كما أن المجال أضيق من أن يسمح لنا بذلك . غير أنه لابد لنا من التعريج على المهجر الجنوبى ، لنذكر شاعرين منه امتازا بالشخصية القوية البارزة فى شعرهما ، وهما فوزى المعلوف ، والشاعر القروى . فوزى المعلوف يتميز شعره بنصاعة العبارة ، وجمال التشابيه والاستعارات ، ولطف الخيال ، كما يتميز فيه الشاعر بحسن اختياره للفظة الدالة على معناها ، مع المحافظة على التعبير الشعرى التصويرى الخالص . ولعله فى هذا أول من استحدث الأسلوب الشعرى فى الشعر العربى المعاصر ، بعد أن استحدث جبران فى النثر مثله . وعنه نشأت – كما يخيل إلى – المدرسة الشعرية العربية الحديثة التى تعتمد على الجمال والموسيقى فى اللفظة والعبارة ، وعلى الغنى الدافق بالصور والألوان اللطاف .

خذ مثلا النشيد السادس من ملحمته « شعلة العذاب » ، فهو يدلك على نوع شعره ، وعلى التعبير الشعرى الفنى الذى نعنيه عنده :

أيها الوردْ ، والضُّحَى فضَّ كمَّكْ ... كيف تبكى – بلا سَبَبْ ؟
لم تَثُر بَعدُ شقوة العمــــر غمَّكْ ... فالتشكى – إذن – عَجَبْ
كيفَ تبكى والفجـرُ يفترُّ للأر ... ض فيمحو قطوبَها بافْترارهْ
ما عرفت الرّبيــعَ غضـًّا جميـلاً ... للأمــانىّ بسمة فى اخضرارهْ
لا ولا الصيف ناسجاً فى محيّــا ... ك خيوطَ الحيـــاة من أنْوارهْ
ما رأيت الخـــريفَ فى صدرك العا ... رى يــوشّى عقيــقه بنضارهْ

والشتـــاء الحـــزين يغسلُ ساقَيْ ... لك بدمع ينهلُّ فى أمطـارهْ
ما عرفت النسيمَ روحاً خفيفـــاً ... عطـرُ أنفاسه دليلُ مـــزارهْ
تمتمـــاتُ الغـــرام تُسمع من فيـ ... ـه وهمْسُ السماء فى مزمـارهْ
دغـــدغ الروض عابثاً بنـــداهُ ... ساكباً روحَه عـــلى أزهاره
ما رأيت الفَـــراشَ يطـوى جناحَيْـ ... ـه ويهـــوى عليكَ بعد مطـــاره
يتملى من كأس كمّك نهْـــلاً ... ثمّ يلـــوى بنشوة من عقـــاره
قلبـــه ذائبٌ عـــلى شفتيـــه ... قُبَـلاً لم تـــزلْ توجّ بنـــــاره

ففى هذا الغنى الكثير بالصور الشعرية ، وهذه العبارة الناصعة ، يتلخص طابع فوزى المعلوف الشعرى ، ويضاف إليها كآبة عميقة تسيطر على نفسه فيصطبغ بها شعره .

وأما الشاعر القروى فيمتاز بذوب الإحساس فى حنينه ، وبفورته العارمة الخطابية فى وطنيته . وأما التعبير الفنى عنده فى وطنياته فهو أحياناً دونه عند فوزى المعلوف وجبران ، مثلا ، إلا فى قصائده المتميزة ، مثل « الربيع الأخير » و « أقحوانة أبرنكا » وغيرهما ؛ لأن الشعر الوطنى الفائر يعتمد فى الغالب على الألفاظ الخطابية ، ذات اللهجة الحادة المثيرة . وهنا نجد طابع القروى الشخصى فى شعره . فعبارته الشعرية هى عاصفة مزمجرة ، لألفاظها وقع الهول ؛ لأنها تعبير عن ثورة عصوف . ومن ذلك قوله فى « عيد الفطر » :

صياماً إلى أن يفطـــر السيف بالدم ... وصمتاً إلى أن يصدح الحقّ يا فمى
أفطرُ وأبناء الحـــمَى فى مجاعة ... وعيدٌ وأحـــرارُ البلاد بمـــأتم ؟
هَبُـونىَ عيـــداً يجعلُ العرْبَ أمة ... وسيروا بجثمانى عـــلى دين برهم
ســـلامٌ على كفر يوحد بيننـــا ... وأهـــلاً وسهلاً بعـــده بجهنم

وبعد فقد قلنا كثيراً عن الطابع الشخصى المستقل لدى المهجريين ، وذكرنا كثيراً شيوع الأسلوب الأدبى الفنى فى كتاباتهم . وقد كنا نود أن نقف طويلا عند هذا الأسلوب الفنى لنبين خصائصه عندهم ، ومدى ما فيه من قوة ، لولا أن الدكتور محمد مندور قد سبقنا إلى ذلك فى كتابه « الميزان الجديد » ؛ فقد حلل هناك

عدداً من القصائد والقطع النثرية المهجرية فى فصول متتابعة تحت عنوان « الأدب المهموس » ، اهتم فيها كثيراً ببيان قوة الألفاظ فى الدلالة على معانيها ، وفى جمال مواقعها . لذلك نحيل القارئ إلى تلك الفصول ، ففيها ما يروى غليله ، منوهين بما كان للدكتور مندور – رحمه الله – من فضل فى خدمة الأدب الرفيع بتلك الفصول القيمة .

٣ – الحنين إلى الوطن

لعل الحنين إلى الوطن فى شعر العرب كله أبرز ما نجده بقوة وعنف ، وبرقة وعمق ، فى شعر المهجر الأميركى ، بشقّيه : الجنوبى والشمالى : الجنوبى حيث تنطلق أغاريد الشاعر القروى ، وترانيم فوزى المعلوف ، وإلياس فرحات ، وشفيق معلوف ، ونعمة قازان ، وجورج صيدح ؛ والشمالى حيث تتسعر أناشيد أبى ماضى ، ورشيد أيوب ، ونسيب عريضة ؛ تلك الأناشيد والأغاريد والترانيم التى ينقرها الحنين الصادق اللاعج على أوتار جياشة بالشعور العميق المتفجر ، دفاقة بالعاطفة المضطرمة ، المجنحة بالإبداع والخلق والشاعرية المرهفة .

ولا عجب فى ذلك ، فالعربى اللبنانى والسورى الذى نزح عن دياره ، يحمل بين جنبيه طموحاً أعرض من الفضاء ، وآمالاً أطول من أشعة الشمس ، وخلّف وراءه دنيا تهدهدها السذاجة والقناعة والروحانية – وإن يكن إلى جانبها الذل والجهل والخنوع – اصطدم فى المهجر بالمادية الصارخة ، والحياة الآلية المزعجة التى لم يألفها فى الشرق ، ولا ألف ما هو قريب منها ، والتى أحسن ميخائيل نعيمه التعبير عنها بكلمة موجزة إذ قال : « كنت واحداً من الملايين التى كتب لها أن تفتش عن « إبرة » السعادة فى « جبال » القير والأسفلت والحجر والحديد المعروفة باسم نيويورك » ؛ فلم يلبث أن شعر بفراغ عظيم فى قلبه وفى حياته ، فجعل يتذكر قريته الهانئة الوادعة ، الغارقة فى أحلام اليقظة الحلوة ، تغازلها عيون « الشيخ » حرمون ، وتداعب شعورها أنامل آيار ، وتعانق

أرزها الخالد نفحات النسيم الرطاب . فجعل يحن متلهفاً إلى مرابع صباه ، ومغانى أنسه وهواه ، حيث الشمس المشرقة ، والحياة الهادئة البسيطة ، والطبيعة الممراح الباسمة ؛ حيث كان سعيداً فى قناعته الصوفية ، وسذاجته الروحية ؛ وحيث كان يجد من وقته ما يذكر به ربه ، ويعيش معه لحظات من نهاره ، كما يقول قازان فى « معلقة الأرز » :

وكنت مـع الله فى قريتى فصرتُ بلا الله فى غُربتى

فأصبح فى مهجره القصى بعيداً عن الله ، بعيداً عن سعادة القلب ، وطمأنينة الضمير ، وبساطة الروح – والشرق يظل يعيش بالروح وللروح ، مهما حاولت مدنية المادة أن تجرفه فى تيارها – فلا المال الكثير يخفف من فقره الروحى ، ولا الشهرة العريضة تدخل الرضى إلى ضميره ؛ فإذا به يهتف بلسان القروى :

إيه لبنانُ ! هل يَراكْ نازحٌ شفَّهُ هواكْ
حبذا العيشُ فى حماك حبذا العيشُ ليلتَيْنْ – ثم حَيْنْ
كلُّ شىء إلى الفنا ما ترى الكدّ والعنَا
ما ترى المالَ والغنى عند مرآك ساعتَيْن – حلوتَيْن ؟

وبلسان نعمه قازان القائل :

هجرت ، وللنفْس أطماعُها وإنى مع الحظِّ فى هجْرَتى
فلا المالُ أشبعَ من جوعتى ولا المجدُ أطفأ من غلتى
هى النفسُ تحيا بإحساسها وليسَ على الحسِّ من قدْرةِ
فلا ، لا أحبُّ سوى قرْيَتى ولا ، لا أريدُ سوى أمَّتى

لقد أضرم الاغتراب حنين المهجريين ، فجعلوا يحنّون إلى الشرق الذى مازال يرسف فى قيود المذلة والهوان ، ويتمنون له الحرية الكاملة ليتسنى له أن يحتضن أبناءه من جديد كما تحتضن الدجاجة فراخها . وفى هذا الحنين أنتج لنا المهجريون شعراً رائعاً عبقرياً ، سيبقى زغرودة فى فم الأيام ، لما ينصح به من حنين مشبوب ، ووجد صادق ، وما يزخر به من عاطفة محتدمة ، وخيال

ساحر . وأبرز ما نجد ذلك عند شعراء المهجر الجنوبى – أمريكا الجنوبية – وعلى الأخص عند أبى الفضل الوليد وعند الشاعر القروى ، رشيد سليم الخورى ، وإلياس فرحات ، فهم فى المهاجر الأميريكية زعماء شعراء الحنين ، وشعراء الوطنية الثائرة ، بلا منازع . ولم يقصر شعراء المهجر الشمالى فى هذه الناحية ، فقد اكتوى الجميع بنار الغربة المحرقة ، وأحسوا بلواعج الحنين الملتهبة ، ففاضت قرائحهم بشعر هو السحر الحلال ، فى التغنى بجمال موطنهم الشرقى ، وفى تذكر أيامهم السالفة فى سهوله ورباه ، وفى تعنيف ذويه الذين كانوا راضين بحكم الغرباء فيه ، واستنهاض هممهم لدفع ذلك العار ، وللعمل على تحرير بلادهم من كل نير غريب .

يقول إلياس فرحات معترفاً بسبق الشاعر إلياس طعمه – أبو الفضل الوليد – له وللشاعر القروى فى الشعر القومى ، ما يلى فى كلمة له نشرتها مجلة (الضاد) الحلبية [1] :

« جاءت الحرب العالمية الأولى ، وفى خلالها لم نكن نسمع إلا شعر إلياس عبد الله طعمه (أبو الفضل الوليد) مجلجلاً بالقومية العربية . وقد بدأت أنا فى أواخر الحرب المذكورة أنظم الشعر العربى الفصيح مقلداً به شعر إلياس طعمه . وكان القروى ساكتاً فى تلك الأيام ، أو كان ينظم بعض الترانيم لبعض الحفلات المدرسية والعائلية ، ويلحنها وينشرها ضارباً على عوده . . . »

ثم يضيف فرحات قائلاً :

« إن شعر القروى القومى جاء بعد شعر إلياس طعمه ، وبعد شعرى ؛ ولكنه كان أقوانا صوتاً وأعلانا نفسًا . وما زال صوت القروى يجلجل بهذا الشعر الحماسى النارىّ حتى أسكتته الشيخوخة التى أسكتتنى معه . . . »

هذا الشاعر القروى ، وهو من أكثر المهجريين حنيناً ، فى شعره ، وأعمقهم به شعوراً ، وأعنفهم فيه وطنية ، لا يرى فى البرازيل شيئاً إلا ويلوح له فيه خيال وطنه : ففى « أقحوانة أبرنكا » يخاطب تلك الأقحوانة التى قطفها من منتزه « أبرنكا » حيث نودى باستقلال البرازيل ، فيقول :

---

(١) الضاد – (ع ١١ و ١٢) تشرين الثانى / كانون الأول ١٩٦٨ .

يا زهرة يحيى شذاها العظامْ فوحى لأشقى أمةٍ فى الأمَمْ
مُسّى أنوفاً أصبحتْ فى الرغام فربما عـادَ إليهـا الشممْ
فجردت فى أبرنكا الحُسـام وركزتْ فى حرمونَ العَلَمْ

ويلوح له خيال سوريا فى جريان مياه النهر ، وفى لهيب النار ، وفى النسيم الذى يدغدغ الشاطئ الوسنان . وهو يهتف فى قصيدته « أحبابنا » ملتاعاً فيقول :

أحبابَنـا ! سكتت على الأغصـان أصوات البلابلْ
وأتى الرعاةُ من الجبال ولم يعد فى الحقْل عاملْ
قوموا نعودُ إلى الحمَى ، عـاد الجميـع إلى المنازلْ

ونحن نلمح هذه اللوعة الصارخة العميقة فى البيت الأخير – « قوموا نعود إلى الحمى . . . » ولكن أين منه هذه العودة إلى الحمى ، وهو القائل :

أرومُ إلى ربَى لبنانَ عودًا فيمنعُنى عـن العـود افتقارُ
ولو خيّرتُ لم أهجرْ بلادى ولكن ليس فى العيش اختيارُ

وهو فى هذا القول يصور لنا الشعور العميق الذى يحس به القسم الأكبر من المهجريين ، وقد عبّر عنه غير واحد منهم[١] .

وهـذا جبران الذى نال من الشهرة فى الغرب والشرق ما لم ينله أديب عربى آخر ، ودرّت عليه شهرته فى مؤلفاته ورسومه الأموال الكثيرة ، ولكنه ظل طوال مدة هجرته يحلم بالعودة إلى لبنان ، ليقضى أيامه فى صومعة هادئة فى دير مار سركيس هرباً من المدنية والضجيج . وقد أبرز لنا ميخائيل نعيمه صورة بارعة مؤثرة من حنين جبران ، فى كتابه عنه ؛ فقد ذكر أنه بينما كان جبران مرة يرسم صورة لنعيمه ، كان يحدثه عن حنينه فيقول : « ميشا ، ميشا ! نجّانى الله وإيـاك من المدنيـة والمتمدنين ، ومـن أميركا والأميركيين ! ونحـن سننجو بإذن الله ، وسنعود إلى قمم لبنان الطاهرة ، وأوديته الهادئة ، وسنأكل من عنبه

---

(١) لقد تحققت أمنية القروى ، فعاد إلى الوطن منذ عام ١٩٥٧ ، وهو يقيم الآن فى قريته (البربارة) فى لبنان .

وبقوله ، ونشرب من خمره وزيته ، وسننام على بيادره ، ونسرح مع قطعانه ، ونسهر على شبابات رعاته ، وخرير غدرانه . . . إن نفسى تطالبنى بعزتها ، وفكرى يطالبنى بحريته ، وجسمى يطالبنى براحته . ولن أستعيد عزة نفسى وحرية فكرى وراحة جسمى إلا فى لبنان . ولو كنت تعرف الصومعة التى اخترتها لى ولك هناك ، لكنت تجذبنى من يدى فى هذه الدقيقة وتقول : هيا بنا إليها ! هى صومعة أصلية يا ميشا ، لا تقليدية كصومعتى هذه » .

ولما طلب إليه نعيمه أن يترك كل شىء ويمضى إلى ذلك المكان ، اعتذر جبران بأشغاله التى تقتضيه البقاء حيناً آخر . فلما قال له نعيمه إنه إذا استرسل إلى الأشغال والمصالح فإنها ستظل تزداد وتحرمه أمنيته ، أجاب جبران : « لا ، بل سأسكنه – سنسكنه يا ميشا – بالجسد . إذا كنتَ قد مللت هذا العالم ، عالم الماكينات والخيالات ، فأنا قد مللته مثلك وأكثر . وأنت وأنا لن نجد منه ملجأ أجمل وأهنأ وأقدس من مار سركيس . وأنت ستحب تلك الصومعة مثلما أحبها » . فيجيب نعيمه قائلاً : « لقد جعلتنى أحبها منذ الآن ، وستزورها أحلامى مراراً كثيرة قبل أن تزورها عيناى ، وتطأ ترابها قدماى » .

غير أن جبران لم يزر صومعته تلك إلا ميتاً ، ليدفن فيها وينام نومته الأخيرة ، لا لكى يستسلم فيها إلى خيالاته وأحلامه الشعرية والروحية .

وكتاب « النبى » لجبران ليس سوى تعبير عن حنين جارف : فالمصطفى الذى قضى فى مدينة أورفليس اثنتى عشرة سنة يترقب عودة سفينة ليركبها عائداً إلى الجزيرة التى ولد فيها ، هو نفسه جبران الذى عاش فى مدينة نيويورك ، وفى قلبه حنين حارّ إلى القرية التى ولد فيها : إلى بشرى . وعودة النبى إن هى إلا أمنية روح جبران فى الرجوع إلى قريته .

وهذا إلياس فرحات يصور لنا حنين نفسه ، فيقول فى إحدى قصائده :

نازحٌ أقعدهُ وجْد مقيمْ ... فى الحَشا بين خمود واتقادِ
كلما افترّ له البدرُ الوسيمْ ... عضّهُ الحزنُ بأنياب حدادِ
يذكرُ الربْعَ القديمْ ... فينادى :
أين جناتُ النعيمْ ... من بلادى ؟

ثم يصف جمال لبنان ، وشوقه إليه ، فيقول :

خصه المبدعُ بالحسْن البديعْ زاهياً بين الرَّوابى والبطاحْ
ملقياً من نسْج أبكار الرّبيعْ فوق أكتاف الرُّبى أبهى وشاحْ
حبذا راعى القطيع فى المراحْ
منشداً لَحْنَ الهزيعْ للصّباحْ

ورشيد أيوب يرى الثلج المتساقط فيطير بخياله إلى الثلوج التى تكلل هامة صنّين ، و « شيخ » لبنان الأشم ، فيهتف قائلاً :

يا ثلجُ قد هيجتَ أشجانى ذكّرتنى أهلى بلبنان
بالله قلْ عنى لجيرانى : ما زالَ يرعىَ حرْمةَ العَهْدِ

ويفيض به الحنين والوجد ، فيهتف أيضا :

بلَى ، بعد هذا البعادْ ألا سجّلى يا سما :
أنا فى أقاصى البلادْ وروحى بوادى الحمَى

ويهتف أيضاً فى قصيدة له بعنوان « ذكرى لبنان » :

هل يعُودْ عيشٌ قضيناهُ بتلك الصُّرودْ
أو تجودْ هذى الليالى بانتظام العقُودْ
كى نرودْ فى سفح صنِّين مقرّ الجدُودْ

يا رياحْ عودى إذا ما جئت تلك البطاحْ
شنّفى سمعى ، ومَن حدَّثتِ منهم صِفى
تشْتف روحى بمعناك اللذيذ الخفى

ونسيب عريضة ، شاعر الحيرة الأكبر بين المهجريين ، يحنّ إلى مدينته « حمص » فيناجيها فى قصيدة له بعنوان « أم الحجار السود » قائلا :

يا جارةَ العاصىَ لديك السؤددُ لبنانُ دونَك ساجدٌ متعبدُ
هو عاشقٌ من دمعه لك موردُ وارحْمتا لمتيّمٍ مصفودِ
يَسقى الهَوى من قلبه الجلمودِ

يادهرُ قد طال البعادُ عن الوطَنْ هل عودةٌ ترجَى وقد فات الظّعَنْ
عُـد بى إلى حمص ولو حشو الكفن واهتف : أتيت بعاثرٍ مردودِ
واجعلْ ضريحى من حجارٍ سودِ

وفى قصيدة أخرى يصور لنا لوعة المهاجر فى تذكره أهله وبلاده ، وفي حنينه الجارف إلى قريته وخلاّنه ، فيقول :

تدفّقى يا رياح الشرق هائجـةً فأنت لا شك من أهـلى وإخوانى
وذكّرينى بما أنسيتُ من أمل وجنّحينى أرفرفْ فوق أوطانى
مرّت ثلاثون لم أنْسَ العهود وهل تُنسى مواثيقُ أرحام وإيمان
الأهلُ أهلى وأطلال الحمَى وطنى وسـاكنو الرَّبْع أترابى وأقرانى
قد كنت أشتـاقهم والعينُ تنظرهُمْ واعِظْمَ شوقى عـلى بعدٍ وهجران !

ومثله مسعود سماحة القائل :

أحـبُّ بلادى وإن لم أنَـمْ قـريرَ الجفـون بأحضانها
فكم أنت النفسُ من يأسها وناءتْ بأثقـال أشجانها
تـودّ الرّجوع إلى عشّهـا وليس الرّجـوعُ بإمكانها

وهذا الحنين الملتهب الذى يلتعج فى صدور المهاجرين يصوّر لبنان وسوريا فى نفوسهم بأروع الصور ، حتى لتحسدهما الفراديس على مالهما من جمال وبهاء وعظمة ؛ فيهتف القروى قائلاً :

عجبـاً لسـورىّ يحقّر أرْضَهُ والخلْقُ يسجد للتراب السورى

أو يقول :

غرستُ بلبنـــان ورد الأمَل فقـلْ للبرازيل أن تمحلا
وَجُدتُ عليه بدمْـع المُقَـلْ فقلْ للأمازون أن يبخــلا
وحلّيت قلبى بنبـع العَسَــلْ فقـل للّيالى : امْطرى حنْظَلا

ونعمه قازان يدعو لبنان باسم « حد السماء » ثم يقول :

إذا عيّروكمْ بهــذا الشموخ ألا فارْجمـوهُمُ بالنَّجْمةِ

ويقول أيضاً :

أقول : بقــاعُ الدُّنى حــلوة وأحْــلى بقاع الدُّنى بُقْعَتى

ويقول أبو ماضى :

الأرضُ : سوريا أحَبُّ ربوعها عندى ، ولبنانُ أعزّ جبالها
والناسُ أكرمهم علىّ عشيرَها — روحى الفداءُ لرهْطها ولآلها : —
تشتاقُ عينى قبل يُغمضها الرَّدى لو أنها اكتحلتْ ولو برمالها

وفى قصيدة أخرى يقول :

اثنان أعيْــا الدهر أن يبليهما : لبنــانُ والأمل الذى لبنيهِ

ويقول جورج صيدح معبراً عن شوقه وحنينه إلى دمشق :

عهْدُ الشباب وعهْدُ الشام إن مَضَيــا فكل ما أبْقت الأيامُ حرْمانُ

ويقول أيضاً مخاطباً نهر بردى :

ملأتُ منكَ يدى بعد امتلاء فمى ولو قدرتُ ملأت الصّدْرَ والكَبدا
حتَّى آقــول لدهر سامنى ظمَــأ فى غربتى : لن ترانى ظامئــاً أبَدا

ولشفيق المعلوف قصيدة بعنوان «حنين» من روائع الشعر المهجرى ، يبدؤها بقوله :

طــالَ بى الشوقُ ولجّ الظمــا إلى ليال فى أعالى الكــُرومْ
يُغرى بها البدر صبايا الحِمَى كأنما البدرُ خلالَ الغيُومْ
جَمَّع أنوارَ جميع النجومْ وصبّهــا من كــوّة فى السما

ويقول الشاعر عقل الجرّ فى قصيدة له بعنوان « شبح الأرز » :

أعِدْنى إلى الأرز يا خالقى فليست بلادىَ هذى البلادْ
أعدنى إلى الشفَق المستنير يلفّ الرّبى ضوْؤُهُ والوهَادْ
أعدْنى إلى مسْرحى فى الشباب ومطلع فجْر المنَى والرّشادْ
أرى شبَح الأرز فى يقظتى ويعرضُ لى طيفُه فى الرّقادْ
أعدْنى لأشهدَ فصلَ المصيف وفصلَ الخريف وفصل الزّهَرْ
ولحف الثلوج تغطى الظلامَ فتحسب أنّ الصَّباحَ انتشَرْ
أعدْنى فليس جمالُ الوجود يعادلُ عندىَ تلك الصُّوَرْ

ويقول فوزى المعلوف معرباً عن شدة مرارته فى شعوره بالغربة عن الأهل والدار :

لهفى للربوع تضحى وتمْسى | وهى خلْوٌ إلاّ من التنكيدِ
ينزح الساكنونَ عنها ووجه الـ | أرض رحْبٌ إلى المزار البعيدِ
مثلما تنزح الطيورُ عن الـ | رَّوض وقد راعَها ذبولُ الورودِ
هجروها وماءها وهَواها | لم يطيقوا فيها هوانَ القعودِ
ودّعوها والدّمع ملء المآقى | لنواها ، والنارُ ملء الكبودِ
فلوَ انّ الأصمّ يسمع صوتاً | صرخوا بالبواخر الصمّ : عودى !

وأما أبو الفضل الوليد فيهتف بمرارة مناجياً بلاد الأرز وجبال لبنان العالية ، وشواطئ الشام الجميلة قائلاً :

يا شاطئ الشام الجميل سلامُ | فعليكَ حامَ الشعر والإلهامُ
وإليك يصبو نازحٌ فى صدره | نورٌ ، وحوليه عدى وظلامُ
قد ذابَ يا لبنانُ قلبى فى النوى | فمتى بعَودٍ تسمح الأيامُ
بالله يا وطنى أحظّى عودةٌ | وسعادة ، أم غربةٌ وحِمامُ ؟
إن متّ فى أرض الأجانب يائساً | حنتْ إليك من الغريب عظامُ
أنت العزيزُ على التدانى والنوى | وبنوكَ فى كل الأمور كرامُ

ويقول فى أحد موشحاته الرقيقة بعنوان : « بنت لبنان » :

يا نازحاً طال عليه الزَّمَنْ | هلا تعللتَ بذكر الوطَنْ
فتبسم النفس لوقْع المحَنْ | كنجمة تطلع فوق الهضابْ
فى سفْح لبنان رعيناها
إذا من الموج سمعنا الحنينْ | إذا من الروضة طال الأنينْ
إذا من العود شجانا الرنينْ | نذرف دمعاً هان فى الاغترابْ
ونكسر الكأسَ وننساها

وترافق الحنين إلى الوطن عند المهجريين نغمات أخر فيها عنف ورقة ، وفيها اضطرام وإثارة . تلك هى نغمات الوطنية والقومية . فهم يتألمون وتثور

لواعجهم لما تعـانيه أوطانهم من أنواع العبوديات : العبودية للمستعمر الغاصب ، والعبودية للجهل وللتفرقة الاجتماعية بين أبناء الوطن الواحد . لقد تحرر المهجريون من هذه العبوديات كلها ، فتـاقوا إلى رؤية بلادهم متحـررة منهـا مثلهم . وقـد كانت لهم فى كل حادثة وطنية ، وفى مختلف مراحل النهضة القومية الحاضرة أصوات مسموعة ، وأقلام مزجرة ، تمهد الطريق ، وتهيئ الأفكار لاستكمال العدة للنهوض الصحيح ، والوعى القومى القويم . وقد اشترك الشعر والنثر فى هذه السبيل ، فى المهجر الشمالى والمهجر الجنوبى على السواء ، وإن تكن النزعة القومية والوطنية فى المهجر الجنوبى أبرز وأشدّ احتداماً .

٤ – التامل

هنالك ميزات يتميز بها مهجريو الشمال ، وميزات أخرى يتميز بها مهجريو الجنوب ، وميزات ثالثة يشتركون فيها جميعاً ولو على مقاييس متفاوتة . وقد رأينا فى القسم السابق من هذه الدراسة كيف أن المهجريين قد اشتركوا كلهم فى الحنين إلى الوطن ، لأنهم جميعاً عانوا لواعج الغربة ، واكتووا بنيران الشوق إلى الحياة البسيطة : حياة القرية الهانئة الوادعة ، بعد أن صدمتهم مادية الغرب ومدنيته صدمات قاسية ، وفجعتهم بما ألفوه من أخلاق الشرق وروحانيته وسذاجته .

ونأتى الآن إلى ميزة اختص بها – فى الغالب – مهجريو الشمال ، وأذكر منهم فى المكان الأول ، جبران ، ونعيمه ، ونسيب عريضة ، وأبوماضى ، والريحانى . ولم يشترك من مهجرى الجنوب بهذه المزية إلا الأقلون ، وعلى مدى ضيق .

وميزة التأمل هذه هى من أبرز ما يميز أدب الرابطة القلمية ، بنوع خاص ، عن سواه من آداب العرب جميعاً ، فى القديم والحديث – باستثناء القليل منها ، كأدب المعرى مثلا – لأنها بعض طابعهم الجديد ، وبعض الخصائص التى أدخلوها على الأدب العربى الحديث – وكم أدخلوا عليه من جديد نفيس ! –

وتفوقوا فيها ، وسموا إلى جواء عالية . والذى يقرأ أدبهم التأملى ؛ الشعرى والنثرى ، يرى أن هؤلاء الأدباء – الأدباء بالطبع لا بالمران والصناعة – ، كأنما كانوا فى تأملاتهم يتجردون من طبيعة الطين ، ويسمون فوق الحياة وفوق البشر ، ويحلّقون بأخيلتهم فى عوالم مجهولة ، يحللون النفس الإنسانية ويصورونها بدقة ، ويحاولون إماطة اللثام عن أسرار الحياة ، وأسرار ما وراء الحياة . وفى كثير من هذه التأملات العميقة الرحيبة يحدوهم الشك . . . ولكنه الشك الباحث عن الحقيقة ، المتطلع إلى تحقيق مثل إنسانية عليا خالدة ، لا تتطرق إليها الشكوك ، ولا تلفّعها الأوهام والأساطير . لذلك نستطيع أن نقول إن الأدب العربى لم يعرف الأدب التأملى قط كما عرفه فى أدب المهجر بشكل جديد رائع ، فيه عمق ورحابة وشمول ، وفيه قوة وحيوية وجمال .

ولكى ندرك انفساح الآفاق النفسية ، وامتداد الخيال الجموح فى أدب المهجر ، نأخذ أغلب مؤلفات جبران ، من مثل : يسوع ابن الإنسان ، وآلهة الأرض ، والنبى ، والمجنون ، والمواكب ، وأشياء من « العواصف » ، وغيرها .

ثم نأخذ كذلك من مؤلفات نعيمه : زاد المعاد ، والمراحل ، والبيادر ، وهمس الجفون ، ومرداد – هذان الأخيران بنوع خاص – . ونأخذ أيضاً القسم الأكبر من شعر إيليا أبى ماضى ، ولا سيما « الطلاسم » . ومثله من شعر نسيب عريضة ، وقسماً غير قليل من « الريحانيات » لأمين الريحانى ، ولا سيما من شعره المنثور الـذى فصله أخوه ألبرت الريحانى فيما بعد فى كتاب خاص دعاه (هتاف الأودية)

ثم لابد لنا من أن نعرّج قليلا على المهجر الجنوبى ، لنجد هناك فوزى المعلوف يشارك أدباء الشمال فى النزعة التأملية ، التى أنتجت له « على بساط الريح » و« شعلة العذاب » ؛ وهما مطولتان من أروع الشعر العربى الحديث ، يختـلف فيهما الاتجاه الفكرى إلى حدّ ما ، ولكنهما تشتركان فى العمق ، كما تشتركان فى الجمال وفى براعة الخيال . وعدا ذلك لا يخلو أدب المهجر الجنوبى من تأملات قصار قلائل لشعراء آخرين ، ولكنها ليست من البروز على مثل حظها فى أدب الشمال . ونذكر منها على سبيل المثال قصيدة « بين البقر والبشر» للشاعر القروى ، وفيها يقول :

طوباك سارحة فى القفر طوباكِ إن كنت أحسد مخلوقًا فإياك !
طوباك فى الصيف والرّمضاء تتقدُ والحرّ منه يذوب الجلْدُ والجَـلَدُ
هذا اللهيبُ الذى يُشوى به الجسد أشدّ منه على أكبادنا الحسدُ
إن كان منه الذى سوّاك نجـاك طوباك فى لفحة الرّمضاء طوباكِ!

وكذلك نشير إلى قصيدة « بين الطفولة والشباب » لإلياس فرحات ؛ وهى قصيدة طويلة استعرض فيها الشاعر حياته وذكرياته الماضية فى كثير من الحنين واللهفة .

أما من شعر فوزى المعلوف فنأخذ مثالا فى نشيد « العبد » من مطولته « على بساط الريح » حيث يقول . . . :

أنا عبد الحياة والموت ، أمشى مكرهاً من مهـودها لقبـورهْ
عبد ما ضمّت الشرائع من جـو ر يخطّ القوىُّ كلّ سطـوره
بيراعٍ : دمُ الضعيف لـه حبـ رٌ ونوحُ المظلوم وقْعُ صريـره
أنا فى قبضة العبـودية العمـ ياء أعمى مسيرٌ بغـروره
كلّ ما بى فى الكون أعمى ومنقا دٌ على رغمه لأعمى نظـيره

أما نعيمه فشعره كله من النوع التأملى ، وكذلك أغلب نثره . وبما أننا مضطرون إلى الاكتفاء بأقل ما يمكن من النماذج ، لذلك نكتفى من شعر نعيمه بقصيدته « الخير والشر » التى يقول فيها :

سمعتُ فى حلمى ، ويا للعَجبْ سمعت شيطانًا يناجى مـلاكْ
يقول : « أى بل ألف أى يا أخى ! لولا جحيمى أين كانتْ سماك ؟ »
أليس أنا توأمـان ، اسْتَوى سرّ البقا فينا وسرّ الهـلاكْ ؟
ألم نُصَغْ من جوهـر واحـد ؟ إنْ يَنسنى الناس أتنْسى أخاك ؟
فأطرق ابنُ النـور مسترجعاً فى نفسه ذكرى زمـان قديمْ
واغرورقتْ عينـاه لما انْحنى مستغفراً ، وعانق ابْـن الجحيمْ
وقال : « أى بل ألف أى يا أخى ؟ من نارك الحرى أتانى النعيم »
وحلّق الاثنـان جنبـا إلى جنب ، وضاعا بين وشى السديمْ

وأما جبران فليس ثمة من يجهل « مواكبه » التى تجمع فى ابياتها المائتين والثلاثة خلاصة فلسفة الحياة . وفيها يقول فى « العدل » على لسان الشيخ :

والعدلُ فى الأرض يُبكى الجنّ لو سمعوا ... به ويستضحكُ الأمواتَ لو نظروا
فالسجنُ والموتُ للجانين إن صغروا ... والمجدُ والفخرُ والإثراء إن كبروا
فسارقُ الزهر مذمومٌ ومحتقرٌ ... وسارقُ الحقل لهو الباسلُ الخطرُ
وقاتلُ الجسم مقتولٌ بفعلته ... وقاتلُ الروح لا تدرى به البشرُ

وعلى لسان الفتى :

ليس فى الغابات عدْلٌ ... لا ولا فيها العقابْ
فإذا الصفصافُ ألقى ... ظله فوقَ الترابْ
لا يقولُ السرْو : هذى ... بدعةٌ ضد الكتابْ
إن عدلَ الناس ثلْجٌ ... إن رأته الشمسُ ذاب

وعلى هذه الطريقة من الحوار بين الشيخ والفتى يمضى فى تحليل أمور الحياة والمجتمع الإنسانى . ونقرأ « طلاسم » أبى ماضى ، فنراه يبدؤها بقوله :

جئتُ لا أعلمُ من أين ، ولكنى أتيتُ
ولقد أبصرت قدّامى طريقاً ، فمشيتُ
وسأبقى سائراً ، إن شئتُ هذا أم أبيتُ
كيف جئتُ ؟ كيف أبصرت طريقى ؟ لست أدرى

ثم يختمها بقوله :

إننى جئت وأمضى ، وأنا لا أعلمُ
أنا لغز ، وذهابى كمجيئى طلسمُ
والذى أوجدَ هذا اللغْزَ لغز أعظمُ
لا تجادل . . . ذو الحجى من قال : إنى لست أدرى !

ونأتى إلى شعر نسيب عريضة ، صاحبُ ديوان « الأرواح الحائرة » : وهى تسمية تدل على حيرة روحه الباحثة عن الحقيقة خلف كل شىء ، والتى لعلّها لم تصل إلى شىء من الحقيقة حتى احتوتها الأبدية الخرساء ، فقشعت

عن عينيها حجب الفناء الجاهل الحاضر ، وأطلعتها على أسرار الأزل والأبد واضحة ، لا لبس فيها ولا تعمية فلنسمعه فى قصيدته « على الطريق » يتساءل وهو يحثّ على المسير :

لمـاذا وقفت بخوف وحيرَه ... أيا نفس عند الطريق الأخيرَه ؟
ألا امْشى فإن الحياةَ قصيره ... ألا امْشى !
مقرُّ الإله بعيد ، فسيرى ... لكى تدركى الله قبل النشورِ
فجدّى ولا تسألى عن مصيرى ... بـعَيـشى
ألا امْشى ، وبعد الجهاد الحقيق ... سنسبـق آمالنـا فى الطريق
ونجنى الأشعـة قبـلَ الشروق ... ألا امْشى !

وصاحب « الريحانيات » الذى تزخر « ريحانياته » بالتأملات اللطاف ، فى قصائده المنثورة ، لنستمع إليه كيف يخاطب الأمواج « على رمل الإسكندرية » بخيال شعرى ساحر ... « إيه أيتها الأمواج الخالدة ! كم شاهدت من أمواج الإنسانية ومن بحورها الفانية ! أمام عيونك الزرقاء ، وفى ظل ابتسامتك الفضية ، كم تَبَخَّر بحر ، وكم تبددت تحت أقدامك موجة هادرة ، شامخة من أمواج الناس !

« من ميازيب ذهبية ، فى بساتين من النور الأزلى الروحانى ، هناك نبعك أيتها الأمواج ، وهناك أيضاً نبع الإنسانية .

« لا تعجبى من هياج هذا الإنسان واضطرابه ، فما هو سوى طوائف من الأسماك والحيوانات البحرية ، تختبط فى بحر من النفس لا يرى .

« أيتها الأمواج الناطقة بلسان الفناء والأزل ، الحاملة إلينا نبأ من الموت ، ونبأ من الخلود ؟ إن بحر الإنسانية ليفيض وينضب ، وليُزيد ويهيج ، ليهدأ أو يتبخر ويتلاشى ، وأنت إلى الأبد فى أعين الشموس والأقمار ، تشاهدين أباطيل هذا الزمان ، كما شاهدت أباطيل الأزمنة الغابرة » .

وهكذا نرى أنه بهذا النوع من الأدب التأملى ، ولا سيما ما كان منه متسربلا أثواب الشك الحائر ، الباحث عن الحقائق العارية الصريحة خلف ما يكفّنها من أوهام وخرافات . يمتاز أدب المهجريين . الذى تحرر من قيود التقليد .

وتجرد عن قيود المادة ، وحلّق فى جواء حرّة سامية ، يكتشف المجهول ، ويستنطق الغيب ، ويحلل الأشياء ويعللها ، ليصل إلى حقائقها الخالدة . وهو أدب أفاضته أرواح حرة ، ورتلته ضمائر صريحة ، لا تجد ما يحدّها ويكبلها دون البحث عن الحقيقة .

٥ – النزعة الإنسانية

وكما يمتاز الأدب المهجرى بنزعته التأملية الواسعة ، ورقة حنينه وعمقه ، وبتحرره من قيود التقليد ، يمتاز كذلك برحابة نزعته أو روحه الإنسانية . فقد اتسعت آداب المهجريين – مثل اتساع قلوبهم – للحبّ المطلق لكل الوجود ، ولكل ما فى الوجود ، ولرغبة الخير المطلقة لكل المخلوقات .

فالذى يطلع على أدب المهجر اطلاعاً شاملاً دقيقاً ، يرى أن الممتازين من المهجريين يشتركون فى أهم الخصائص التى ميزت أدبهم فى مجموعه . وهـذه الخصائص ترجع إلى عوامل نفسية ، اشترك فيها المهجريون جميعاً . ولا غرابة بعد ذلك فى أن يصدروا عن مدرسة واحدة ، ما دامت العوامل النفسية واحدة عند الجميع ، وما دام الجميع يغترفون من مصادر الحياة الواحدة الشاملة .

وإذا كانت النزعة الإنسانية ، التى لا تعرف الحدود ولا الفروق فى المخلوقات ، هى من أبرز خصائصهم ، جماعة وأفراداً ، فإن رشيد سليم الخورى وإلياس طعمه وفرحات وأمثالهم من شعراء الوطنية لم يشذوا عنهم فى هذا ، ولكنهم كانوا من عمق الإحساس الإنسانى بحيث كانوا يريدون أن يروا وطنهم حرًّا وقادراً على الاشتراك الفعال فى بناء صرح إنسانية حرّة سعيدة ، بدلا من أن يظل مستعبداً ، يستجدى الحرية فلا يجدها ، ويصبو إلى العدل فلا يناله . ولذلك تحوّل الشعور الإنسانى عندهم إلى نقمة عارمة على من يذلّون أمتهم ، ويغلون أقدامها دون الانطلاق فى موكب الإنسانية الحرة . فهذا الشعور الوطنى والقومى الناجم عن إنسانية عميقة رحيبة ، حصر فكرة الإنسانية عند أمثال القروى وفرحات ،

وجـورج صيدح ، وأبى الفضل الوليد ، و إلياس قنصل ، ونصر سمعان ، وغيرهم فى حب وطنهم وأمتهم إلى أن تصبح أمتهم حرّة ، وقادرة على المساهمة فى تشييـد المجتمـع الإنسـانى الشـامل الحر . وهذا التركيز جعـل من هؤلاء شعراء الوطنية الثائرة . ومصدر هذه الثورة هو ما كان من عدم إفساح المجال لأمتهم لكى تكون نبتة حرّة فى حديقة الإنسانية الشاملة ، أسوة بغيرها من الأمم الحرة ، وليس هو مجرد حب العنصرية ، والتعصب للقومية الضيقة ، التى يعرفون أضرارها كما يعرف ذلك كل مثقف رحب الأفق النفسى . هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى نجد أن العمل على تحرير الشعوب الضعيفة ، وقيادتها إلى الاشتراك فى الشعور بوحدة الإنسانية والعمل لها ، إنما ينطوى على معنى إنسانى سام نبيل ؛ لأنه إذا جاز لنا أن نرفق بالحيوان الأعجم وندعو هذا الرفق « إنسانية » ، فأى إنسانية أسمى من أن نرفق بالإنسان العاقل ، وعلى الأصح بشعوب كاملة ضعيفة من بنى الإنسان ؟ !

والإنسانية فى مفهومها العام ، هى نظرة واسعة إلى الحياة ، وإلى الوجود ؛ وعلى الأخص إلى المجتمع البشرى ؛ وهى الحلم الأكبر الذى يراود أخيلة المفكرين والشعراء والفلاسفة ، وكل ذى قلب كبير ، وضمير حى . ومن معانى هذه الإنسانية فى ما يتعلق بالجنس البشرى : نشر المبادئ السامية والمثل العليا بين الناس ، ومحاربة النظم التى تباعد بين الإنسان وأخيه الإنسان ، والعمل على خلق مجتمع إنسانى يسوده العدل والرحمة والمحبة ، وعلى تخفيف الشقاء الإنسانى ، وتصوير الحياة بصورة محببة إلى النفوس . أو هو بكلمة أخرى : المحبة الصحيحة لكل ما فى الوجود ، بغير تفضيل أو تفريق .

ولعل أبرز دلائل هذه المحبة الكبيرة عند المهجريين – وأعضاء الرابطة القلمية منهم بنوع خاص – وأجدرها بالذكر ، هو هذا النداء الرقيق الحنون الذى أشاعوه فى الأدب العربى ، وهو : « يا أخى » أو « يا رفيقى » . وهو نداء يلمس شغاف القلب ، فيحيله إلى شعلة من الحنان والمحبة ، ويفعل فيه فعل السحر . والأدب العربى فى ماضيه الطويل كله ، قبل ظهور المدرسة المهجرية ، قَلّ – أو ندر – أن عرف هذا النوع من النداء العاطفى الإنسانى ، الذى

يُشعر كل إنسان على وجه الأرض بأنه أخ لنا حبيب فى رابطة الإنسانية الكبرى .

والذى يقرأ شعر المهجريين ونثرهم ، يقف بجلاء على مدى تغلغل الروح الإنسانية فى آدابهم . فمن ذلك قول إيليا أبى ماضى فى قصيدته « ابتسم » :

قال : السماءُ كئيبةٌ ! وتجهَّما ... قلتُ : ابْتَسم ، يكفى التجهم فى السما
قال : الليالى جرّعتنى علْقَمـا ... قلتُ : ابتسمْ ولئن جرعت العلْقما
فلعـلّ غيرك إن رآك مرنمـا ... طـرح الكآبة جانباً وترنمـا

ومن يقرأ شعر أبى ماضى كله ، ولا سيما فى « الجداول » و « الخمائل » ، يدرك إلى أىّ مدى بعيد تغلغلت فيه الروح الإنسانية ، وما يفيض به قلبه من المحبة الكبيرة .

وأما ميخائيل نعيمه فليس ثمة من يجهل قصيدته « أخى » وما تحمله من المعانى الإنسانية العميقة . ونحن نكتفى بالإشارة إليها لشهرتها . وما عـداهـا لو شئنا لنقلنا الجزء الأكبر من كل كتبه ، ولا سيما زاد المعاد ، والبيادر ، والمراحل ، وهمس الجفون ، والنور والديجور ، وصوت العالم ، ومرداد . فليرجع إليها من شاء ، ليتزود من هذه الذخيرة الإنسانية الغنية ، أثمن الغذاء .

ولعل من الواجب أن نذكر ههنا أن الآفاق النفسية فى أدب جبران ونعيمه وأبى ماضى ونسيب عريضة ، خاصّة ، أبرز فى رحابتها منها عند الآخرين . ولعل قصيدة نعيمه التى مطلعها :

كحّل اللهمّ عينى ... بشعاع من ضياكْ – كى تراك . .

والتى يقول فيها :

واجعل اللهمَّ قلبى ... واحةً تسقى القريبْ – والغريبْ

لعلها من أبرز الأدلة على رحابة الأفق الإنسانى .

وأما جبران فإننا نستدل على مبلغ شعوره الإنسانى الحار الذى سكبه فى كتبه الكثيرة ، ولا سيما فى « النبى » ، من شذراته القصيرة التالية فى كتابه « رمل وزبد » التى يقول فيها :

« ما أنبل القلب الحزين الذى لا يمنعه حزنه عن أن ينشد أغنية مع القلوب

الفرحة » . وأيضاً « اجعلنى يا الله فريسة للأسد ، قبل أن تجعل الأرنب فريسة لى » . وأيضاً « البغض جثة راقدة ، فمن منكم يريد أن يكون قبراً ؟ »

وقوله فى « دمعة وابتسامة » . . « أنت أخى ، وكلانا ابن روح واحد قدوس كلى . . وأنت رفيقى على طريق الحياة ، ومسعفى فى إدراك كنه الحقيقة المستترة وراء الغيوم . . أنت إنسان ، وقد أحببتك ، وأحبك يا أخى . . . خذ منى ما شئت ، فلستَ بسالب غير مال لك الحق بقسم منه ، وعقار استأثرت به لمطامعى ، فأنت خليق ببعضه إن كان يرضيك بعضه . أنت أخى وأنا أحبك ، ساجداً فى « جامعك » ، وراكعاً فى « هيكلك » ، ومصلياً فى « كنيستك » . . . »

وتسمع همسة الإنسانية اللطيفة ، التى من معانيها الفناء فى المجموع لخير المجموع ، يرددها نعمة قازان فى « معلقة الأرز » حيث يقول :

ألا فاشربوا الوحْىَ من جرّتى ولا بأسَ إن تكسروا جرّتى
إذا كان فيها الحياةُ اشْربوا ولا ترفعوها على صحتى

وكذلك تتجلى لنا الإنسانية على أروعها فى تصوير الشاعر القروى لضعف :اندى المنتصر بقوة غصن السلام ، وإن يكن تصويراً استعملت فيه ألفاظ الحرب والقوة ، التى هى من مميزات شعر القروى . فهو يقول فى قصيدته « الربيع الأخير » :

وهل سمعتَ بغاندى ؟ إنه حمَلٌ فى الهند ثار على الضرغام وانتصرا
إن كان عابَ عليه العرىَ مستترٌ فإن آدمَ لولا الإثم ما استترا
هذا الضّعيف الذى لو هزّه ولَدٌ لا ندقّ كالعود فى كفيه مندثرا
هزُّوا الحسام فلم يحفلْ وهزّ لهم غصنَ السلام ، فهزّ البحر والجزرا
وغادر السيف يحكى غمده فللاً فاعجبْ لغصن يفلّ الصّارم الذكرا

وفى وصفه لحبة القمح ، وهو من أعمق المعانى الإنسانية النبيلة الدالة على صفاء القلب والروح :

وكأنما الشوق الذى فى وسْطها لك قاتلٌ : نصفى يخص أخاك

كما تتجلى أيضاً فى قول وليم كاتسفليس : « ما عَمَّرَ الأكوانَ إلا المحبة . والقلب إن لم يسع الدنيا ، فهو وعاء صغير ؛ وإن لم يفهم أنغام الكائنات فهو أوتار ميتة لا تحركها أغانى الأرواح المتآخية . فليحدث كل جرح فى قلوبكم جرحاً » .

وفى قول أمين الريحانى : « إنى فى تلك الذرىٰ زهرة من أزهار الحب الدائم العميم ؛ وفى الحب الدائم تتلاشى العصبيات الدينية والقومية كلها . إنى فى تلك الذرى بذرة من بذور الخير الإنسانى الأكبر ؛ وفى الخير الإنسانى الأكبر تضمحل الضغائن ، وتزول الخصومات فى مشارق الأرض ومغاربها ، بين الأمم جمعاء » .

وهكذا نرى آداب المهجر قد امتازت باتساع المدى : بالعمق ، والعلو ، وانفراج الأرجاء ، كما يقول نعيمه فى كتابه « الغربال » فى وصف ديوان نسيب عريضة . وقد اتسع أفق إنسانيتهم حتى شمل الوجود بأسره : بناسه ، وحيوانه ، وجماده ؛ فهم يرون الجمال فى كل شىء ، حتى فى « الدودة » : فيرى نعيمه أنها ليست أقل شأناً من العقبان والنسور ، ولا هى دميمة فى عين الحياة ، ثم هى لا تعرف الفروق : فلا التبر عندها أغلى من التراب ، ولا الماس من الحجارة ، ولا الغراب من البلبل ، ولا الغزلان من الدود ، ولا هى تحرق عوسجة لكى تغرس مكانها أزهارًا وآساً . لقد تساوت بذرة الحياة ، التى يعبر عنها نعيمه « بوحدانية الحياة التى جوهرها واحد لا يتغير » ، فى كل كائن حى .

وهذه المعانى تلخص نظرة المهجريين إلى الحياة والوجود ، فهم ، كما يقول جبران : « قد بلغوا إلى قلب الحياة فوجدوا الجمال فى كل شىء ، حتى فى العيون المتعامية عن الجمال » . ولذلك يرون أن كل ما فى الوجود إنما وجد ليؤدى قسطه من رسالة الحياة على الوجه الذى أراده له واهب الحياة .

وبهذه الروح الواسعة اصطبغ أدب المهجريين ، فجاء تعبيراً سامياً عن نوازع إنسانية رحيبة ، وتصويرًا لحياة إنسانية شاملة مثلى .

٦ – حب الطبيعة

أدباء المهجر جميعهم من أخلص أبناء الطبيعة وعشاقها ؛ فهم عميقو الإحساس بها ، عميقو الحب لها والاتصال بها ؛ يرون فى كل ما فيها أشياء حية : تحب وتكره ، تسعد وتشقى ، تفرح وتحزن ، وترجو وتخيب . وهم لذلك يناجونها ، ويستلهمونها ، ويتمثلون بها ، ويبثونها آمال قلوبهم وآلامها ، وأشواق نفوسهم وحيرتها . وهى توحى إليهم بالحنين ، إذ تذكّرهم بما كانوا يجدونه من جمالها الفتان فى ربوع بلادهم ، وتوحى إليهم بالتأمل العميق فى أسرارها ، وما أبدع الله فيها من معجزات تحار فيها العقول ، وتوحى إليهم بالنوازع المهذبة والأفكار السامية ، وبالأخيلة البعيدة كأطراف الأفق ، المترقرقة كالجداول المنسابة ، اللطيفة كأنسام أيار ، والرحيبة كصفحة الفضاء .

والذى يطلع على إنتاجهم الأدبى يرى أن للغاب حظاً وافراً من هيامهم ، فهم يرون فى حياته مثالية سامية ، « فمواكب » جبران ذات المائتين والثلاثة الأبيات فيها مائة وخمسة وعشرون بيتاً تدور على الغاب ، وقدسية الغاب ، ووحدانية الغاب ، وسعادة الغاب . وفيها يقابل جبران بين حياة المجتمع ذات الفروق والتقاليد والمعاملات المبنية فى الغالب على الرياء ، والأهواء الشخصية ، وحياة الغاب الوادعة البسيطة التى تضيع فيها الفروق كلها ، وتستوى فيها سائر المخلوقات ، لأن لها مشيئة واحدة تجريها على الجميع ببساطة ومن دون تفريق ؛ فيفضل هذه على تلك قائلا :

العيشُ فى الغاب ، والأيام لو نظمتْ فى قبضتى لغدَتْ فى الغاب تنتشرُ

ذلك لأن أنين الناى فيه هو أبقى وأنقى من كل ما فى المجتمع البشرى من أوهامه الزائلة .

« وما الناى سوى رمز الروح الذى تلتقى فيه كل الأرواح ، فتؤلف لحناً واحداً كاملا لا نفار فيه ولا تشويش » كما يفسره نعيمه .

وفى القسم الأخير من « المواكب » يتساءل جبران ، على لسان الفتى القادم من الغاب ، يعزف على نايه ألحان السعادة ، يسأل الشيخ الخارج من

المدينة مثقل الروح بهمومها وأوصابها وسخافاتها ، فيقول :

هل تخذت الغابَ مثلى منزلاً دون القصورْ
فتتبعتَ السواقى ، وتسلقتَ الصخورْ

هل جلستَ العصرَ مثلى ، بين جفنات العنبْ
والعناقيد تدلتْ ، كثريّات الذهَبْ

هل فرشتَ العشبَ ليلاً ، وتلحفتَ الفضا
زاهداً فى ما سيأتى ، ناسياً ما قد مضى

وليس هذا فقط ، فالطبيعة عند جبران هى رفيقة خياله ، وملهمته البارعة . نـراها تترقرق فى أقاصيصه ، وفى تأملاته ، وفى شذراته ، وفى همسات قلبه وروحه ووجدانه التى جرى بها قلمه المبدع . فالذى يقرأ نجواه لليل ولقلبه « بين ليل وصباح » وللأرض ، وغيرها ، يشعر بنشوة عميقة تهزّ جوانحه لهذه الصور التى تتواكب أمام خياله ، فيترنم مع جبران بأغاريد الطبيعة الحنون ، التى تمسح على جبينها أنامل النور ، والتى تجنّحها الكآبة بخيوط من نسيجها الرهيف .

وكما كان جبران شديد الإحساس بالطبيعة ، كذلك كان القسم الأكبر من رفاقه : فأبو ماضى ، لشدة اتصاله بالطبيعة ، وشغفه بها يراها دائماً تتعرّى له عن فنـــون جديدة من السحر الخلاب ، وتغذى خياله بصنوف من الموسيقى والشعر والإلهام . ولذلك يشعر قارئ دواوينه بأنه يعيش فى دنيا من الشموس والزهر والعطر والألحان . ولم يختلف عن جبران فى الهيام بالغاب الذى يدعوه أحياناً بالقفر ، فيقول :

خلتُ أنى فى القفر أصبحتُ وحدى فإذا الناسُ كلهم فى ثيابى

ويقول فى إحدى قصائده الغزلية :

تعالى ، إن ربّ الحبّ يدعونا إلى الغاب
لكى يمزجنا كالماء والخمرة فى كاس
ويغدو النورُ جلبابَك فى الغاب وجلبابى
فكم نصغى إلى الناس ونعصى خالقَ الناس

ويصبو إلى حياة الغاب ، حيث يأنس إلى جوار الطبيعة ، وحيث يطيب له أن يفنى فى الطبيعة ، وتفنى فيه ، فيقول :

وَلْيَكُ الليلُ راهبى ، وشموعى الـ شهب ، والأرض كلها محرابى
وكتابى الفضاء أقــرأ فيه سُوَراً ما قرأتها فى كتاب
وصلاتى الذى تقولُ السواقى وغنائى صوت الصَّبا فى الغاب
وكؤوسى الأوراق ، ألقت عليها الـ شمس ذُوب اللجَين عند الغياب
ورحيقى ما سال من مقلة الفجـ ـر على العشب كاللجين المذاب

وكذلك يهيم نسيب عريضه بالغاب ، فيقول فى إحدى قصائده :

أصبتِ يا نفسُ ، فاتبعينى فليس كالغاب من مقامْ
يا غاب ! جئناك للتعــرى أنا وروحى ، ولا حرامْ
فليذع الغصْنُ ما يــــراه منـا إذا أحسن الكلامْ

والحنين إلى الغاب هو التعبير الصادق عن رجاء السعادة فى نفس كل إنسان . فالغاب عند المهجريين هو رمز البساطة والجمال ، أو هو – كما يقول نسيب عريضة : « كتاب مقدس ، كلماته تعاويذ تشفى من لذعات فلسفة الحياة » ويعرّفه ميخائيل نعيمه بأنه « عنوان الحياة الشاملة . . التى تطعم ذاتها من ذاتها : فلا موت الحمل عندها مأتم ، ولا غذاء الذئب وليمة » .

وقد صوّر لنا نعيمه ، فى حياة جبران ، مدى شعور المهجريين بالطبيعة بصورة دقيقة ، إذ قال : « سيان عند الشجرة أأكل ثمرتها إنسان أم ثعبان ، أو تفيأ ظلها قنفذ أم غزال ، أو تدفأ بحطبها ملاك أم شيطان ؛ فالإنسان والثعبان ، والقنفذ والغزال ، والملاك والشيطان ، أبناء الغاب الواحد ، وللغاب منهم غاية واحدة ، وله فيهم مشيئة واحدة ، من عرفها لم يعاندها ، بل استسلم لها ، وباستسلامه لها جعلها مشيئة له ، ومن جهلها فعاندها ، سحقته فأشقته » .

ونعيمه إذ يقول ، إنما ينظر إلى الوجود كله – كما كان ينظر إليه جبران من قبله – على أنه وحدة كاملة ، تتنوع مظاهرها ولكن جوهرها واحد لا ينفصل .

والذى يصل إلى مثل هذا الفهم الدقيق ، وهذا الشعور العميق بالطبيعة وأسرارها ، ليس عجيباً أن يتخذها مصدراً لوحيه ، ومحوراً لإلهامه . فها هو ذا نعيمه يخاطب الله فى الفصل الأول من « بيادره » قائلا : « يا الله ، أمس جاءنى رسولك نيسان ، وعلى حقويه منطقة من شقائق النعمان والأقحوان ، وعلى رأسه إكليل من النسرين والوزال . وقد لف ذراعيه بالورود والياسمين والريحان ، وساقيه بالأرز والسرو والسنديان . . فما إن وطئ عتبة دارى حتى أعشبت عرصاتها واخضلّت ، وكانت قبلا جرداء يابسة . . لقد وددت لو يقيم الرسول عندى إلى الأبد ، ولكنه كان على سفر ، فما كاد يسلم حتى راح يودع » .

ثم يمضى فى ذلك الفصل الطويل الرائع على هذا النسق الشعرى ، ليصل إلى نهاية الفكرة الروحية التى يريدها ، عن طريق تصوير الطبيعة هذا التصوير النابض بالحياة وبالإيحاء .

وفى شعره يناجى « النهر المتجمد » فيبثه همومه فى قصيدة طويلة ، ثم يعود فى ختامها إلى تفاؤله ، الذى لا يفارقه إلا ليعود إليه ، وإلى طمأنينة روحه التى أوحت إليه أن يقول فى قصيدة أخرى :

سقْفُ بيتى حديدْ ركْن بيتى حجَرْ
فاعصفى يا رياح وانتحبْ يا شجَرْ
واقصفى يا رعودْ لستُ أخشى خطَرْ

« وأوراق الخريف » ، تلك التى اعتاد الشعراء أن يتخذوا منها رمزاً للآمال المحطمة فى النفس الكئيبة ، يناجيها نعيمه مودّعاً ، وفى وداعه ينثر لنا حكمة الروح التى ترى أن كل شىء فى الحياة يجرى وفق خطة مرسومة فى لوح القدر من قديم الأزل : فالموت والحياة ، والضحك والبكاء ، والسعادة والشقاء ، إن هى إلا أدوار تأتى فى أماكنها من رواية الحياة التى ألفها المبدع الحكيم منذ أن أوجد الحياة . فهو لذلك يمر بهذه المناظر متفرجاً ، متأملا ، ليستخلص العبرة من فصولها وأدوارها .

وكذلك نراه يصغى إلى « ترنيمة الرياح » فيناجيها نجوى الروح المحلّق للروح المحلّق ؛ ويفهم « لغة الأجراس » فيشرح للناس معانيها وصداها ، ويناجى

« البحر » و « الدودة » . ولا يمل من مناجاة الطبيعة ، والإفضاء إليها بخلجات روحه ونبضات قلبه ، لأن الطبيعة هى مظهر الحياة الشاملة والوجود الكلّى .

فهذا الإحساس العميق بالطبيعة ، الذى نجده فى أدب المهجريين – وأصحاب الرابطة القلمية منهم بنوع خاص – جديد فى طريقته ، جديد فى روحه ؛ وجدّته تسمو بالروح إلى جواء من اللذة الصوفية ، والنشوة الروحية ، وتترك فى النفس رنيناً حالماً ، يقطر بالعذوبة والغبطة ، ويتعالى بالروح فوق أوهام العالم ، وفوق قيود المادة .

ونحن نمضى فى تتبع أثر الطبيعة فى أدب المهجريين ، فنسمع أمين مشرق يناجى « كمنجته » نجوى كلها رقة وجمال وحنو ، كأنه يخاطب روحاً معزياً ، فيفضى إليها بهمسات روحه وخلجات وجدانه فيقول :

يا ابْنة الألحان ، ما أنت سوى ... صوت روحى ، وصدى قلبى الطموحْ
فى فؤادى ألف « رست ونوى » ... وكمنجاتٌ وأعوادٌ تنوحْ
لا تخافى ، أنا أعطيك الصّدى ... إنما فى داخلى يبقى الألَمْ
هو ذا قلبى مضحىً أبداً ... فدية عن قلبك الخالى الأصمْ
ردّدى منه الأنينا ... وامسلئى الليل حنينا

وننتشى بجمال الطبيعة حينما نستمع إلى الريحانى فى صلاته الرقيقة فى محاريبها ، العذراء دائماً وأبداً ، فيقول فى قصيدته المنثورة « معبدى فى الوادى » :

« إيه أم الطبيعة ، بل أمى ! جئت أجدد معك آمال الحياة وسرورها . جئت أجدد عهدى وإيمانى مع كلأ الحقول وزهورها .

« جئت أردد تحت هذه الأفنان الخضراء ابتهال أبنائك الأتقياء .

« إن فى ورقة من أوراق التوت سرًّا لا يكشفه اللاهوت .

« إلى الوادى إذاً : هناك بين أشجار البطم والزمزريق ، وتحت أدواح الصنوبر والسنديان ، أشيد هيكل الإيمان .

« أرانى هنا فى بيتى ، بل فى بيت الطبيعة ، بل فى بيت الله . .

« سَماع : إنّ من حلق الحسون الذهبى ، تتدفق الأنغام الفضية .

« إن الأطيار تدعوك إلى تجديد إيمانك وآمالك فى الحياة .

« باسمك أيتها النفس الإلهية أصنع لإيمانى إكليلا من أزاهر الزعرور ، لا من أشواكه . .

« وإلى أتباع الذى صُلب ، وبنى الذين صلبوه ، أقول : تعالوا نتصافح تحت السماء ، حيث لا حاجز يحول دون الحب ، ولا ما يحول دون الإخاء » .

وهذا الشاعر القروى فى قصيدته « الربيع الأخير » يقدم إلينا طبقاً من فاكهة شعر الطبيعة الجميل ، فيقول :

عيب علينا نكون البلبلين ولا ... نشاركُ الطيرَ فى أعيادها سَحَرا
أما ترين الدّجى لُمَّت غدائرهُ ... سوداً فنشَّرها رأدُ الضحى شُقُرا
هيّا إلى الغاب ، إنى قد بنيتُ لنا ... من الرّبا بين عشا ليّناً عطرا
إذا سئمنا ذرى أفنانه سُرُراً ... مدّت لنا الأرض من أعشابها حُصُرا

فهذا الوصف الناطق للطبيعة يجعلنا نمتلئ شعوراً بأن الطبيعة فيها مثل ما فينا ، وفوق ما فينا من حياة ، وأننا جزء من هذه الطبيعة الحية ، وجزء بسيط جداً . . وفى هذا يقول إيليا أبو ماضى :

أنت جزء من الكيان ، وفيه ... كَثَراهُ ، كنبْته ، كحصاهُ
كالورود التى تحبّ شذاها ... والبعوض الذى تخاف أذاهُ
ما لحىّ بالموت عنه انفصالٌ ... إنّ دنياهُ هذه أُخراهُ

٧ – البساطة فى التعبير والرقة الغنائية

فى الوقت الذى كان فيه الشعراء الكبار المبدعون فى الشرق – كالبارودى وشوقى ، وحافظ ، ومطران ، والرصافى ، وأمثالهم – لا يستطيعون أن يفوزوا برضى القارئ الشرقى وإعجابه إلا عن طريق الجزالة اللفظية ، والقوالب الشعرية العباسية ، والقصائد الدالة على التمكن من العروض واللغة ، وعلى طول النفَس ؛ فى ذلك الوقت نفسه كان الكبار الممتازون من شعراء المهجر يتغنون من بعيد

بشعر رقيق الألفاظ ، لا أجراس فيه ولا طبول ، سواء أطال فيه النفس أم قصر ، وسواء أكان فى مواضيع غنائية وجدانية ، أم فى مواضيع اجتماعية أو تأملية أو سواها .

ولم يكن ذلك عن ضعف أو هرباً من تكاليف الشعر ، فقد رسخ فى عقيدتهم أن الشعر فنّ الحياة ، لا تكلف فيه ولا تقليد ، وأن الشاعر الذى يلبس ثياب غيره طاوياً الأجيال بذلك إلى الوراء ، لا يعطى الحياة السائرة إلى الأمام من نفسه ، ولا يعطيها من نفسها . وصحّ فى مذهبهم أن البساطة والرقة والغنائية هى عماد الجمال فى الشعر وفى الفنّ ، ولذلك سرعان ما وَجَد شعرهم ، والكثير من نثرهم ، السبيل سهلة إلى نفوس القراء فى الشرق وفى المهاجر على السواء ؛ وما لبث هذا الاعتقاد ، مع الأيام ، أن أصبح هو السائد فى العالم العربى . فأخذ الناس ينظرون إلى نثر نعيمه وجبران والريحانى ، ومن سار على طرائقهم ، بغير العين التى كانوا ينظرون بها إلى نثر اليازجيين والبستانيين ، ونثر الكواكبى ومحمد كرد على فى بلاد الشام ، وإلى نثر الرافعى والزيات وأحمد أمين وأضرابهم فى مصر .

صحيح أن أديب إسحق والمنفلوطى ومى زيادة قد حاولوا تبسيط العبارة النثرية وترقيقها ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من اعتبارات الجماهير القارئة التى كانت تؤمن بأن اللغة التى تستحق الحياة هى اللغة التى أثبتت جدارتها فى عهد الجاحظ وابن المقفع وابن العميد ، وعهد المتنبى والبحترى وأبى تمام ، ولذلك لم تسلم لغة أديب إسحق والمنفلوطى مثلا ، من التكلف الثقيل ، والترادف الممل فى العبارات وفى الألفاظ ، لأن القراء فى الشرق لم يكن لديهم الاستعداد النفسى لقبول الجديد دفعة واحدة ، ولا سيما إذا جاءهم من أدباء يعيشون بينهم فى الشرق .

وصحيح أن إسماعيل صبرى قد حاول الخروج عن طرائق جيله فى التقليد ، فكان شاعراً ينظم فى المواضيع الوجدانية ، وينفر من القصائد الطوال . ولكنه هو أيضاً لم يستطع أن ينطلق مع طبيعته فى التجديد ، وأن يجعل ألفاظه مناسبة لمواضيعه من حيث الرقة والغنائية وبساطة التعبير .

أما المهجريون فقد انطلقوا من اعتبارات التقليد ، ومنحوا أنفسهم الحرية

التى كانت تعوز أدباء الشرق وشعراءه ، سواء فى نثرهم وفى شعرهم . ولهذا كان أدبهم شيئاً جديداً ، لأنه نسف مذاهب الشرقيين فى الأدب ، وفى الشعر ، وفى الفنّ ، وجعل أساس الأدب الحرية والبساطة قبل كـل شىء ، وألا يعطى الأديب والشاعر من عند سواه ، بل من عند نفســه ، وألا يلبس ثياب غيره ولو كانت موشّاة بالذهب والحرير ، بل يرى ثيابه مفصّلة على قدّه ، ولو خلت من كل بهرجة وصناعة .

ولست أريد ههنا أن أتحدث على رقة النثر المهجرى وبساطته ، وبحسبى منه الإشارة وحدها إلى نثر جبران ونعيمه والر يحانى بشكل خاص ؛ والذى أودّ أن أنصرف إلى درسه هو الشعر وحده ، فهو أيسر منالا ، وأوفى بالغرض ، كما أن أصحابه المتفوقين أوفر عدداً ، وأكثر تفنناً فى غنائيتهم ورقتهم واختيار مواضيعهم .

ولقد رأينا فى ما تقدّم من الفصول شيئاً غير قليل من شعر المهجريين الغنائى الرقيق ، فى مختلف مناحيه ومواضيعه ، كما رأينا أشياء من النثر الرقيق البسيط فى تعابيره ، والجميل فى خيالاته وشاعريته .

ونضيف الآن نماذج أخرى من الشعر وحده لشعراء مختلفين من المهجر الشمالى ومن المهجر الجنوبى .

من ذلك قول أبى ماضى فى قصيدة له بعنوان « شاعر الشهور » :

أيارُ ، يا شاعر الشهور وبسمةَ الحبّ فى الدّهور
وخالقَ الزهر فى الرّوابى وخالقَ العطر فى الزهور
وغاسلَ الأفْق والــدّرارى والأرض ، بالنور والعبير
أتيتَ فالكونُ مهرجـــانٌ من اللـذاذات والحبور
أيقظت فى الأنفس الأمانى والابتسامات فى الثغور
وكدتَ تحيى الموتى البوالى وتنبتُ العشْب فى الصّخور
وتجعل الشوك ذا أريج وتجعل الصخرَ ذا شعور
فأينما سرتُ صوتُ بشْرى وكيفما ملْتُ طيفُ نور

وظاهر من هذه الأبيات المقتطفة أنه ليس حتما أن يتجرد الشعر من الوزن الواحد والقافية الواحدة لكى يكون غنائيًّا رقيقاً وإنما الأصل فيه جمال الخيال ،

وبساطة التعبير ، والذوق المرهف الذى يعرف كيف يضع اللفظة الشاعرة المعبرة ، دون تكلف أو جهد . فكثيرة هى القصائد ذات الوزن الواحد والقافية الواحدة لدى أبى ماضى ، ولكنها رائعة فى غنائيتها ، وفى رقة ألفاظها وتعابيرها ، وغنية بالخيال والجمال والتعبير الشعرى المباشر ، دون أصباغ ومساحيق .

ومثلها أيضاً قصائد كثيرة للشاعر القروى ، من شعره الوجدانى ، الذى لا يحتاج إلى صليل السيوف ، وبريق الرماح ، وإلى الجلجلة الخطابية . ومن ذلك قصيدته « الربيع الأخير » التى يقول فيها :

طيرى ننقرْ مع الأسراب فى فرص ... إن طرن لن تجدى حَباًّ ولا ثمَرا
غداً نذوبُ إلى الأعناب من ظمإ ... ونهبط الكرم لا نلقى لهَا أثرا
لنا من الشَّفَق السحرىّ أجنحة ... فما التفاعك فى جنحَى دجًى وكرى
وقـد فشا بين أضلاع النوافذ من ... عطر الخمائل سرٌّ حرّك السُررا
والغاب ألّف جوقاً من عشيرته : ... الرّيحَ والنهرَ والأطيارَ والشجَرا
رفّ النسيم عـلى أدواحـه فبَهـا ... ما بالمحبّ إذا طيف الحبيب سرى
والبدر كالناشئ العصرىّ عاد ضحى ... من مرقص النجم يشكو الضّعف والخورا
والأرض حارت : أتلقى الفجر ضاحكة ... لأمها الشمس ، أم تبكى ابنها القمَرا

وهكذا تمضى القصيدة الطويلة ذات المائة والثلاثة الأبيات ، سلسلة ، رقيقة ، عذبة ، فتحس لقراءتها بالنشوة الغامرة ، يسكبها فى نفسك قلم يفيض بالسحر حينما تفيض نفس صاحبه بنشوة الحياة وسحر الأحاسيس الدافئة : أحاسيس الحب ، والحنين ، والإنسانية الرحيمة . وإليك أبياتاً من قصيدته « أختى المريضة فى العيد » :

رأيت الصبايا صفوفاً تغنّى ... وتطفُرُ فى العيد مثل الظبا
إلى كل روض ، على كل غصن ... أهاب الربيع فلبّى الصبا
قصائدُ من كل وزن ولحْن ... يرتلها الله فوق الرّبى
وأختى البريئةُ رهْنُ الألَمْ ... كما حُبس الطفلُ عن ملْعَبهْ
إلهىَ ! ضيّعت أحْلى نغَمْ ... وعطلتَ شعْرَك من أعذبهْ !

* * *

فدعْها تطرْ نحو تلك الرّبى وتَجن الزهــورَ كأترابها
وإلا فمُرْ بلبــلاً مطربا من الروض يشدو على بابها
وقل للنسائم أن تجلبــا إليها الشذا ملء جلبابها
وإن شاء عفوك أن يرحما صباها ويدرأ عنها الخطَرْ
فَمُنَّ بإبلالها قبلمــا تجفّ الحقولُ ويذوى الزّهَرْ

ألا ، كم أود أن أعرف كيف أعلق على مثل هذا الشعر ! فهو من السحر الذى تمتلئ به النفس ، ولكن اللسان لا يعرف كيف يعبّر عن نشوتها به . فليست هنالك فخامة ألفاظ ، ولا غرَابة صور ، ولا جلجلة تعابير ، وإنما بساطة متناهية فى التعبير عن عاطفة أخوية حارة صادقة ، فكان التعبير عنها صادقاً مثلها ، وحاراً مثلها ، ورقيقاً عذباً مثلها . وكل شطر من القصيدة يغنّى نفسه بتدفق وحلاوة .

وهذا نسيب عريضة ، شاعر الحيرة الأكبر بين المهجريين ، يتحدث عن حيرة قلبه بملء البساطة المعبرة ، فيقول فى قصيدة بعنوان « مَركب الفؤاد » :

قلبى بلا شراع يطوفُ فى البحارْ
قد قارب التداعى من كثرة الأسفار

* * *

سفينة حقيره ليس لها ربّانُ
فى ظلمات الحيره منارُها الإيمانُ

* * *

طاف البحارَ يرجو جــزائر الخلودِ
لعلّه أن ينجو من لجة الوجودِ

* * *

يا عاصفاتُ هبّى وغرّقى السفين
فى العمق يلقى قلبى مرفأه الأمينْ

* * *

ويقول فى قصيدة بعنوان « كن » :

كن مثل كأس قد صفا لونها تملؤها خمراً ولا تسكرُ
كن كالضحى يذهب فى دوره تذكره الأمساء والأعصرُ
كن مثل مرآة إذا استُقبلت أظهرت الشيء كما يظهرُ
لكن إذا ما غبتَ عن وجهها لا تفضح السرّ ولا تنشرُ
كن مثل شمس منحت نورها لكل مخلوق ، ولا تُشكرُ

وهذا رفيقه « الدرويش » رشيد أيوب ، الشاعر الذى لم يعرف فى شعره إلا العبارة السهلة واللفظة الساذجة ، يقول من قصيدة بعنوان « الربيع » :

قالوا : ربيع ! قلت : أين الصبي أين الفراشات ، وأين الطيور ؟
أيام أعدو خلفها حافياً وكيفما فى الحقل دارتْ أدورْ
طائرة ، لكننى مثلها من فرحى ما بين تلك الزهورْ
وكل ما فى الوجودْ
لنا حلال مباحْ
لا عاذلٌ ، لا حسودْ
لا غربة ، لا انتزاحْ
هذا ربيعٌ ، أعطنى مثله وخذ إذا ما شئت كل الدهور !

ومن الشعر الوصفى والتأملى الرقيق قصيدة للشاعر شكر الله الجر ، يناجى بها حديقة وينذرها بخريف يعريها من البهجة والرواء ، ثم يمنّيها بربيع يعيد إليها الجمال . وفى ما يلى القصيدة كلها ، إذ أن الاقتباس منها لا يكفى لإبراز مدى ما فيها من الرقة والعذوبة والغنائية :

غداً ستعرّى بنانُ الخريف أفانينَ أشجارك الزّاهره
وتنثرُ كفّ الشتاء هباءً بقايا وريقاتك الناضره
وتحجبُ عنك ثغورَ النجوم غمائمُ فى أفقها سائره
ويغشاك عند الصباح الضّبابْ
غداً ستلملم عنك الطيورُ الـ جناحَ إلى أربع قاصيه
فلا ما يزقزقُ فوق الغصون ولا ما يرفّ على الساقيه

بلى ، قد يمرّ عليك الغـــرابُ وينعبُ فى الدّوحة العـارية
وبعضُ النعيب نذيرُ الخرابْ
سيجفو ظلالك أهـــل الهـوى وتحتلك الوحشةُ المرعبـه
فلا تسمعينَ خفـــوق القلـوب ولا رنّـة القُبَل المطـــربه
ولا تلمحين بنـــانَ الحسان تداعبُ أثمـــارك الطيبـــه
فهـــل تحسبين لهـذا حسابْ ؟
لئن يحـــزننّك أن الخـــريفَ غـداً سيبدّل مـــن نضرتِكْ
فسوف يعيد إليك الرّبيـــع – عريس الزمان – سنى بهجتكْ
فيرقص طيرك فـوقَ الغصـــون ويستضحكُ النور فى وجنتِكْ
ويجـرى بعودك ماءُ الشبابْ
ولكنّ قلبى كمـــا تعهـدين تكرّ فصولٌ وتأتى فصـــولْ
وكلّ الفصول لديه خريـــفٌ وكلّ الليـالى شتاءٌ طويـلْ
فمـاذا أرجّى وقد جفّ فيـــه معينُ الشباب ، وعاثَ الذّبولْ
بزهـر الأمانى فأمسى ترابْ ؟

ولئن كانت هذه القصيدة تذكرنا بقصيدة « النهر المتجمد[1] » لميخائيل نعيمه من حيث الروح والنجوى والختام ، فإنها لا تقل عن أختها تلك رقة وغنائية وجمالا فى عبارتها وخيالاتها الملونة بالكآبة الجميلة . وهذه هى قصيدة نعيمه « النهر المتجمد » ، نورد منها بعض مقاطعها الرقيقة ، وخاتمتها التى تجللها كآبة لم نألفها فى ميخائيل نعيمه ، الفيلسوف والشاعر ، المؤمن بالحياة والوجود وبالطبيعة :

يا نهرُ هل نضبتْ ميـــا هُك فانقطعت عن الخرير؟
أم قد هرمتَ وخـارَ عـز مك فانثنيتَ عن المسير؟
بالأمس كنت مرنمـــاً بين الحـدائق والزهـــور
تتلـو على الدنيا ومـــا فيها أحاديث الدهـــور

* * *

(١) كتب نعيمه هذه القصيدة أولاً باللغة الروسية حين كان طالباً فى روسيا ، ثم عاد فنظمها شعراً عربياً حين كان فى أميركا – كما يذكر فى كتابه « سبعون » .

بالأمس كنت إذا أتيـــ   تك باكيـــاً سلّيتـــنى
واليـــوم صرت إذا أتيـــ   تك ضاحـــكاً أبكيتنى

* * *

بالأمس كنتَ إذا سمعـ   تَ تنهـدى وتوجّعـــى
تبكى ، وها أبكى أنـــا   وحدى ولا تبكى مـــعى

* * *

ها حولك الصفصاف لا   ورقٌ عليـه ولا جمـالْ
يجثـو كئيبـــاً كلمـــا   مرّت بـــه ريحُ الشمالْ

* * *

والحورُ يندب فـــوق رأ   سك نائـــراً أغصانـــهُ
لا يسرح الحسون فيـــ   ه مـــردّداً ألحـــانهُ

* * *

تأتيـــه أسراب مـــن الـ   غربان تنعق فى الفضـــا
فكأنهـــــا ترثى شبـــا   باً من حياتك قد مضى

* * *

لكـــن سينصرف الشتـــا   وتعـــود أيـــام الربيـــعْ
فتفكّ جسمك من عقـــا   ل مكّنتـــه يد الصقيـــعْ

* * *

وتكـــرّ موجتـــك النقيـــة (م) حـــرّة نحـــو البحـــارْ
حبـــلى بأسرار الدّجـــى   تمْـــلى بأنـــوار النهـــارْ

* * *

وتعـــود تبسم إذ يـــلا   طف وجهك الصافى النسيمْ
وتعـــود تسبحُ فى ميـــا   هك أنجم الليـــل البهـــيمْ

* * *

قد كان لى يا نهـــر قلـ   بٌ ضاحك مثل المروجْ

حـــرّ كقلبك فيـه أهــ واء وآمـــالٌ تمـــوجْ

* * *

فتساوت الأيـــــام فيـــ ه : صباحهـــا ومساؤهـــا
وتوازنت فيـــــه الحيـــا ة : نعيمهـــــا وشقاؤهـــا

* * *

سيان فيــه غـــدا الربيـ ع مع الخريف أو الشتاء
سيان نـــــوحُ البائسيـ ن وضحك أبنـــاء الصفاء

* * *

يا نهـــرُ ، ذا قلبي أرا ه كمــا أراك مكبـــــلا
والفـــرق أنك سوف تنـ شط من عقالِك وهو . . لا

* * *

ولئن كنا نحسّ بتجاوب عميق مع هذا التدفق النعيمى الكئيب ، وهذه الرقة الذائبة فى التصوير وبثّ الألم ، وننتشى من طلاوة التعبير وموسيقيته ، فإننا لنتساءل برغمنا : من أين جاءت هذه الكآبة وهذا التشاؤم إلى نفس نعيمه ، وهو الذى يقول فى قصيدته « طمأنينة » :

باب قلبي حصـــــــينْ من صنـــوف الكـــدَرْ
فاهجمــــى يـــا همـــومْ فى المسا والسحَـــــرْ
وانـــزلى بالألـــــــوفْ يا خطـــوبَ البشَرْ

ويقول أيضا :

إذا سماؤك يومـــــــاً تحجَّبت بالغيـــــومْ
أغمض جفـــونك تبصرْ خلفَ الغيـــــوم نجـــومْ

* * *

والأرض حـــولك إمـــا توشحتْ بالثلـــــــوجْ
أغمض جفـــونَك تبصرْ تحت الثلــــوج مـــروجْ

* * *

ونحن بعد هذا نرى مدى ما فى هذه النماذج من شعر نعيمه من العذوبة والغنائية الرقيقة ، مهما اختلفت الروح التى تملى أبياتها .

ونمـــضى فى الحديث لنصل إلى الأخوين الشاعرين : فوزى وشفيق المعلوف ، وكل منهما شاعر غنائى لطيف الشعر ، ذواقة للفظة الشعرية ، والعبارة الدالة على معناها ، وللتعبير الهامس الرقيق . خذ من « عبقر » لشفيق ، ما شئت من أناشيده ، لترى كيف تنساب الموسيقى فى كل نشيد ، مصوّرة باللفظ الجميل كل معنى من معانى المطوّلة ، رعباً كان أم تمرداً ، وسرداً كان أم حواراً . ومن ذلك « همس الجماجم » :

فقلت للأرواح والرمم الباليه :
أين الوجوهُ الصّباح والبسمة الزاهية ؟
من كَفّنَ الصّباح بالظلمة الدّاجيه ؟
كأس اللمى الحمراء من صاغَها وردّ للزهور أصباغها ؟
أكلما الموتُ رأى أكؤساً ملآنة ، حاول إفراغَها ؟
والأعين الساهرات أين لياليها ؟
هل يوم أطفا الممات ضوء مآقيها
تهاوت النيرات وانطفأت فيها ؟
والحبّ ، هل حين انقضى عيده ظل يُدَوّى فى الدجى عودُه
أم ماتت الطير فماتت على مناقر الطير أغاريده ؟

ومطولتا فوزى « على بساط الريح » و« شعلة العذاب » ، وكذلك أغاريده الغزلية وقصائد كآبته ؛ إنها كلها قطع غنائية تفيض بالرقة ، وتزخر بالموسيقى الممتعة المطربة .

وميشال معلوف ، خال فوزى وشفيق ، وأول رئيس للعصبة الأندلسية ؛ اقرأ قصيدته « الخريف فى جنائن فرسايل » لترى كيف تسيل الموسيقى فى الألفاظ :

يا سحُبًا راكضةً فى الفضـــاء مُجدّة فى السير نحو المغيبْ
ناشدتك الله ، تُرَى للفنـــاء ذاهبة ، أم للرجوع القريبْ ؟

ما ألطف الظلّ الذى تنشرينْ
أواه لو أنّـهُ
باق ولكنـهُ
سارٍ مع السائرين

والغـاب لا يُسمع غير الحفيفْ — وغير شدو البلبل النـــازح
تَفرّق الشمل وعاد الخريـفْ — ما أقربَ اليوم إلى البـارح

ياليتنى أعلم أين النوى
وأيـن ريح الجنوبْ
تحملُ عند الغروبْ
أوراق غصن ذوى !

وزكى قنصل ، إنه فى مجموعته « سعاد » وفى الكثير من قصائده الوجدانية الأخرى شاعر كثير الرقة ، تذوب ألفاظه مع ذوب أحاسيسه . وإليك مرثيته لطفلته ، بعنوان « على ضريح سعاد » :

رفتْ رفيفَ الأقحوانه وانطفت فى عمـــرها
ماذا جنت حتى تَصيَّدها الرّدى فى فجرها ؟ !
يا ربّ ! لا تحبس فؤادى لحظةً عن ذكرها
أنا قـد عبدتك بسمةً وضّاءة فى ثغــــرها
وشممتُ أنفـاس الجنـان شذيةً فى شَعرهـا

* * *

أسعادُ ! قد ضحك الصّباح على الروابى والوهادِ
قومى نُغَنّ مع الطيور ، ونَعْدُ من واد لـــــوادِ
كذب النعيّ ، وضاع دمعُ النائحين على سعادِ
ما غبتِ عن عينى فكيف أغوصُ فى ثوب الحدادِ
إنى تحدّيت الردى ، وحملت شخصك فى فؤادى

* * *

وفرحات ، شاعر الوطنية العارمة ؛ إنه فى شعره الوجدانى رقيق ، كثير

البساطة فى عبارته ، والنعومة فى موسيقاه . وإليك كيف يصف غروب الشمس وهو يراقبه من منزله فى مدينة « الأفق الجميل – Bello Horizonte »فى البرازيل :

جـــاء الغروب ، فالتفِتْ إليـــه مـــن شبّـــاكى
تجـدْ ضروب الحسن فى الـ أرضِـــينَ والأفـــلاكِ
جاء على عادتهِ يختالُ فى مشيتهِ
مفضّضاً مذهّبـاً مقوّراً مقبيـــاَ
يريك مـــن أشكاله الـ سعيـــدة الغرائبـــا
وَيُلبس الأشكال مـــن ألـــوانه جلابيـــا
فَانهـرّ من فضّـــة شطـــآنها مـــن دهَبِ
تصبّ فى بحـــيرة زاخـــرة باللهبِ
بين جبـــال تكتسى أزهى وأبهـــى ملبس
النـــارُ فى سفوحهـــا تسمو إلى سطوحهـــا
فتصبـــغ السهول والـ جبـــالَ والتـــلالا
حتى تـــرى الأفـــق وما فى الأفـــق قد تـــلالا

وهكذا يمضى فرحات فى تصوير مشهد الغروب بهذه البساطة المتناهية ، وهذه الخيالات العذبة إلى أن يختم قصيدته قائلا :

فَعِمْ مساءً يا غـــرو ب « الأفـــق الجميـــلِ »
أنت إلى الحسن الـــذى لا ينتهـــى دليـــلى

* * *

وهذه أخيراً قصيدة قليلة الأبيات للشاعر جورج صيدح بعنوان « اللقاء الأخير » ، لا تقلّ عن أخواتها السابقات فى غنائيتها وجمال تعبيرها وبساطته :

لما التقينـــا بعد هجـر السنين سرنا معا فى الروض كالعاشقين
وكان أن أهديتُهـــــا وردة فسقطتْ من كفها بعد حينْ
فالتقطتْها عن أديم الـــثرى إذا بها بيضـــاء كالياسمينْ

ما بيّض الوردةَ ثلـــج همـــى يا غادتى ، لا تنظـــرى للسما
وتهمى الصيفَ بغدر مبين
من جوّ قلبينا الصّقيـــعُ ارتمـــى ثلجاً على الوردة ، والقاطفينْ
والحبّ أشتى ، فلنعـــدْ قبلمـــا تفضحنـــا الزكمـــة للناظرينْ

٨ – الحرية الدينية

الحرية هى الدعامة الأولى التى قام عليها الأدب المهجرى ، سواء فى المعتقدات الفكرية والمذهبية والاجتماعية ، أو فى التعبير وفى فنون البيان . والحرية الدينية عامل عظيم التأثير ، وركن من أهم الأركان التى جعلت الأدب المهجرى يظفر بما ناله إلى اليوم من التقدير والإعجاب ، ويحتل مكانته البارزة فى تاريخ الأدب العربى الحديث .

ولعل المهجريين هم أهمّ فئة من رجال الفكر العربى الحديث نشرت معانى التسامح والتسامى فى الدين ، وجعلت لذلك نصيباً كبيراً من أدب أربابها : الشعر منه والنثر .

فى أدب هؤلاء المهاجرين نجد الحرية فى التفكير والتعبير ، والمناقشة والتفسير لشؤون الدين ، بعيداً عن روح التعصب والجمود ، والتسليم الأعمى لما جاء فى كتب الدين وفى شروح رجاله . وأما التكفير الذى يرمى به الشرقيون بعضهم بعضاً ، وتتهم به كل طائفة وكل ملة أختها ، فهو أبعد ما يكون عن تكفير المهجريين وعن معتقداتهم ، وهم أبعد ما يكونون عن قبوله أو التسليم به .

ولعل أول من جهر من المهجريين برأيه الصريح فى الدين ورجاله ، جبران خليل جبران ، وأمين الريحانى ؛ وعلى الرغم من الاختلاف الكبير فى المنحى الفكرى لكل من هذين الأدبيين ، فقد كانا على رأى واحد فى سذاجة المعتقدات الدينية الطائفية التى نشأ أهلهم عليها فى الوطن ، وفى الكثير من الشعوذات التى يحشو بها بعض رجال الدين أذهان العامة البسطاء . وكانا متفقين كذلك

فى حملاتهما العنيفة التى لا ترحم على الكثيرين من رجال الدين . وقد امتلأت بذلك مؤلفاتهما الكثيرة ، حتى لقد رُمى كلاهما بالإلحاد ، وأحرق أحد كتب جبران من أجل ذلك فى بيروت ، ووضعت كتب الريحانى وجبران فى القائمة السوداء التى يُحرم على الكاثوليك قراءتها ، لمخالفتها لتعاليم رجال الدين وتفسيراتهم لروح الدين الكاثوليكى .

خذ مثلاً لجبران : الأجنحة المتكسرة ، وعرائس المروج ، والأرواح المتمردة ، ويسوع ابن الإنسان ، والعواصف ، وغيرها من كتبه . واستمع إلى قوله فى قصيدته « المواكب » :

والدينُ فى الناس حقلٌ ليس يزرعهُ غيرُ الأولى لهمو فى زرعه وطرُ
من آملٍ بنعيم الخلد مبتشر ومن جهول يخاف النار تستعرُ
فالقومُ لولا عقابُ البعث ما عبدوا ربًّا ، ولولا الثوابُ المرتجى كفروا
كأنما الدين ضرْبٌ من متاجرهمْ إن واظبوا ربحوا أو أهملوا خسروا
ليس فى الغابات دينٌ لا ولا الكفر القبيحْ
فإذا البلبلُ غنى لم يقلْ : هذا الصحيحْ
إن دين الناس يأتى مثل ظل ويروح
لم يقمْ فى الأرض دين بعد طه والمسيحْ

* * *

أعطنى النَّاىَ وغنّ فالغنا خيرُ الصلاهْ
وأنين الناى يبقى بعد أن تفنى الحَياه

وخذ كذلك قوله فى كتابه « النبى » :

« إن حياتكم اليومية هى هيكلكم وهى ديانتكم ؛ فخذوا معكم كل مالكم عندما تدخلون هيكلها : خذوا السكة والكور والمطرقة والطنبور ، وكل ما لديكم من الآلات التى صنعتموها رغبة فى قضاء حاجاتكم ، أو سعياً وراء مسراتكم ولذاتكم ، لأنكم لا تستطيعون أن ترتفعوا بتأملاتكم فوق أعمالكم ، ولا تقدرون أن تنحدروا بتصرفاتكم إلى أدنى من خيباتكم . . . وإن شئتم أن تعرفوا ربكم فلا تعنوا بحلّ الأحاجى والألغاز ، بل تأملوا فيما حولكم تجدوه

لاعباً مع ألادكم ؛ وارفعوا أنظاركم إلى الفضاء الوسيع تبصروه يمشى فى السحاب ، ويبسط ذراعيه فى البرق ، وينزل إلى الأرض مع الأمطار . تأملوا جيداً ، تروا ربكم يبتسم بثغور الأزهار ، ثم ينهض ويحرّك يديه بالأشجار » .

أما الريحانى فخذ من كتبه : الريحانيات ، والمكارى والكاهن ، والمحالفة الثلاثية ، والتطرّف والإصلاح ، وغيرها ، ففيها من الحرية الدينية والفكرية الشيء الكثير المدهش . وهو يختلف عن جبران فى أنه اتخذ من هذه الحرية الدينية وسيلة لتوحيد قلوب أمته – قبل كل شيء – على الوعى الوطنى والقومى ، وعدم استخدام الدين فى التفرقة بين أبناء الوطن الواحد والأمة الواحدة . لقد أراد أن يكون للعرب كلهم دين واحد يجمعهم : هو « الوطنية » أو « القومية » إلى جانب أديانهم السماوية ؛ ولهذه الغاية سخر قلمه ، وكرّس حياته وجهوده .

استمع إليه يخطب فى إحدى الحفلات المدرسية ، فيقول للطلاب :

« إنكم فى هذه المدرسة إخوان وإن اختلفت لهجاتكم العربية ، وتعددت مذاهبكم الدينية . ولكن لا فضل لكم فى هذا الإخاء ، وهو ركن من اركان التعليم الحر الراقى ؛ إنما فضلكم فيها ستحملونه إن شاء الله إلى الوطن – كل إلى بلاده – من هذا الروح المقدس : روح الإخاء الذى سيضمّ تحت لوائه المسلم والمسيحى والدرزى ، كما سيجمع بين اللبنانى والسورى والعراقى والفلسطينى . . .

« كلنا ندين بدين التوحيد ؛ كلنا نوحد الله ولا نرجع فى النهاية إلى سواه ، نحن أبناء الأديان التوحيدية ؛ وما موسى وعيسى ومحمد غير رسل الإله الواحد ، رسل التوحيد . فإذا كان إلهنا واحداً ، ولساننا واحداً ، وبلادنا فى سهولها وجبالها وصحاريها واحدة ، ومصائبنا السياسية كلها واحدة ، أفلا ينبغى ان يكون الوطن كذلك واحداً فرداً لا تقسيم فيه ولا تجزئة ؟ ! . . .

« عندما أفكر فى المذاهب والطوائف الدينية – بليّتنا الكبرى – وفى أولئك المتعصبين جهلا أو نفاقاً ، الذين يكفّرون الناس ويتعيشون بجهل الناس ، أذكر بيتين من الشعر الإنكليزى لصديقى الأميركى الشاعر الكبير إدوين مركهام ، ترجمتها : « إن المتعصّب رَسَمَ دائرة صغيرة وجعلنى أنا الكافر خارجها ؛ ولكنى – والحب عونى – غلبناه . فرسمنا دائرة كبيرة وجعلناه ضمنها » ..»

اما ميخائيل نعيمه فإنه ينحو فى مذهبه منحى جبران عينَه ، حتى ليكرر أقواله بمعانيها فى بعض الأحيان . ولكنه لم يكن يحمل على رجال الدين مثل حملاته العنيفة ، بل كان يدعو إلى تحرير الفكر من عبودية المذاهب ، وإلى التسامى فى الدين فوق الطائفيات والمذاهب . فالإنسانية – لا الوطنية أو القومية – عنده وحدة لا تجزئة فيها ولا مذاهب ولا طوائف ، وقد خرجت كلها من منبع واحد ، وتسير نحو مصبّ واحد .

والذى يقرأ كتابه « المراحل » يجد فيه خلاصة لفلسفته الدينية المتحررة ، التى ترى فى (بوذا – ولاوتسو – والمسيح) ثلاثة وجوه « تقلصت أمامها خيالات كل وجوه البشر » ، ويرى فى تعاليمهم خلاصة الحكمة الإنسانية ؛ فهم « ثلاث منارات على شواطئ الوجود ، تستمدّ نورها من مصدر واحد ، وتنير سبيلا واحداً ، إلى مرفأ واحد » .

وعلى الرغم من أنه لم يحارب رجال الدين ، وشعوذات البعض منهم ، كما حاربها زميلاه جبران والريحانى ، فإنه لم يُعفهم فى بعض الأحيان من كلمة هنا أو كلمة هناك . وإليك مثالا من ذلك فى مقال له بعنوان « الجندى المجهول » فى كتابه « المراحل » يخاطب به الجندى المجهول فيقول :

« وأولئك الأحبار الكبار الذين يرعون قطيع المسيح ، ويكرزون بإنجيل المسيح ؛ أولئك الخدام الأمناء الذين قال لهم سيدهم : « أحبوا مبغضيكم ، باركوا لاعنيكم ، احسنوا إلى الذين يسيئون إليكم » ، فقالوا لك باسم سيدهم : « أبغض مبغضيك ، والعن لاعنيك ، واذبح الذين يسيئون إليك » ، أولئك الأحبار الأتقياء الذين كانوا بالأمس يبتهلون من أجل سلامتك وموت عدوّك ، فلما متَّ شكروا الله لأنه استجاب طلباتهم . . . أولئك الأحبار الأجلاء أنفسهم يمشون مع نعشك اليوم وكأنهم قد وجدوا فيك حلقة جديدة تربطهم بعرش الديان . ألم يطلبوا الفوز لجنود مليكهم المظفر ؟ أوَ لم يسمع الله صلواتهم ؟ فقد فازت جنود الملك ، وها عظامك المجردة من الجلد واللحم ، والتى تجرّها الحياد المطهمة ، تشهد بذلك . وعما قليل سيقف هؤلاء الأحبار فوق رمسك وأمام مذبح الرّب ليصلوا من اجل راحة نفسك . وليشكروا الذى صُلب من

أجلك ومن أجلهم ، لأنه أهَّلك لأن تموت فى ميدان المجد . . . والشرف . . . والوطنية . . . »

وإذا بحثنا عن الدين لدى إيليا أبى ماضى – وهو مسيحى فى أصل معتقده ، مثل جبران والريحانى ونعيمه – وجدناه مثلهم أيضاً من حيث الحرية الفكرية التى لا تؤمن بمذهب يقيم الحدود والفوارق بين الإنسان والإنسان ، بل يدعو إلى التسامح والتسامى فى العقيدة ، وإلى التشبه بالطبيعة التى لا مذاهب فيها ولا طوائف .

فديني كدين الروض يعبقُ بالشذا ... ولو لم يكن فيه سوى اللصّ منسلاّ
فكم هش للأنسام والنـــور والنـدى ... وآوى إليـه الطيرَ والذرّ والنمـلا
وديـــنى الذى اختـــارَ الغديرُ لنفسه ... ويا حسن ما اختارَ الغدير وما أحلى !
تجىء إليه الطـير عطشى فترتـــوى ... وإن وردته الإبل لم يزجر الإبلا

فهؤلاء المهجريون يؤمنون بالله ، ويدعونَ إلى الإيمان به ، ولكنهم لا يرونه بعيون المعتقدات المذهبية التى نشأوا عليها فى طفولتهم ، والتى كانت تحذر الكاثوليكى من أن يشترى زيتاً من أخيه الأرثوذكسى – كما ذكر نعيمه فى كتابه عن جبران – بل يرونه أباً لجميع مخلوقاته على السواء ، ويحبون أن يراه جميع الناس كذلك ، مهما اختلفت مذاهبهم وطوائفهم ؛ فلا فضل لذى ملة منهم على ذى ملة أخرى ، ولا تفاوت بينهم أمامه .

ومثل جبران ونعيمه والريحانى وأبى ماضى كذلك كان جميع إخوانهم فى الرابطة القلمية وغير الرابطة ؛ فالتسامح الدينى ، والحرية الفكرية ، هما المذهب الذى ينتمون إليه ويدينون به .

ومثلهم كذلك نجد أدباء المهجر الجنوبى . فنرى المسيحيين والمسلمين يشتركون معاً فى تكريم ذكرى مولد الرسول ، ويمجدونه فى شعرهم ونثرهم ، ونراهم جميعاً يؤمنون بأن الدين لا يفرّق بينهم ما داموا إخواناً فى العروبة ، واللسان ، والموطن ، وبان الرسول مفخرة للامة التى نشأوا فيها . والتى يجمعهم لواؤها تحت ظلاله .

وكم من حفلة دينية إسلامية هناك كان خطباؤها وشعراؤها من المسيحيين ،

كالقروى ، وفرحات ، وأبى الفضل الوليد ، وشكر الله الجرّ ، ورياض المعلوف ، ونصر سمعان ، وجورج صيدح ، وسواهم .

من ذلك قول الشاعر القروى فى عيد الفطر – والقروى لا يؤمن بدين غير دين العروبة ؛ فكل ما يبعث على رفعتها ووحدتها ومجدها فهو عيده ، وهو مهرجانه ؛ والرسول هو باعث هذه الأمة الأول وموحّدها بدينه ودعوته – :

أكرّم هذا العيدَ تكريم شاعر ... يتيه بآيات النبيّ المعظم
ولكننى أصبو إلى عيد أمة ... محرّرة الأعناق من رقّ أعجمى
إلى علَم من نسج عيسى وأحمد ... وآمنةٌ فى ظلّه أخت مريم
هبونىَ عيداً يجعل العُرْبَ أمةً ... وسيروا بجثمانى على دين برهم
فقد مزقت هذى المذاهبُ شملنا ... وقد حطّمتنا بين ناب ومنسم
سلامٌ على كفر يوحد بيننا ... وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم !

وقوله فى عيد المولد النبوى :

عيدُ العروبة عيدُ المولد النبوى ... فى المشرقين له والمغربين دوى
عيد النبى ابن عبد الله من طلعت ... شمسُ الهداية من قرآنه العلوى
يا قوم ! هذا مسيحىٌّ يذكّركمْ ... لا يُنهض الشرق إلا حبّنا الأخوى
فإن ذكرتم رسولَ الله تكرمةً ... فبلّغوه سلامَ « الشاعر القروى »

وإلياس فرحات ، زميل القروى وصنوه فى الإيمان القومى ، يقول فى التسامح الدينى والأخوة الوطنية :

فيمَ التقاطعُ والأوطانُ تجمعنا ؟ ... قم نغسل القلبَ مما فيه من وَضَر
ما دمتَ محترماً حقّى فأنت أخى ... آمنتَ بالله أم آمنت بالحجَر !

وعلى الرغم من نصرانيته فإنه لم يكن يؤمن قطّ بدين غير دين العروبة ، ولم يشأ أن يخضع عقله لسلطان المعتقدات والطقوس الدينية :

الدينُ قلب نقىٌّ لاه اتصالَ له ... بالزيت والملح والتعزيم والهذر

والدين عنده هو حسن المعاملة ، والخلق النبيل . وهو يقول فى ذلك :

يا مؤمناً كان يدنينى ليقنعنى ... أن الصلاةَ سلاحٌ غير منكسر
وأنّ فى صور الأبرار تعزيةً ... للمؤمنين ومنجاةً من الخطر

لِمْ لا أراك إذا انتابتـــك نائبـــةٌ	مستسلماً لقضاء الديـــن والقدَر
لا تَسْعَ للكسب ، وادفع ما عليك وعش	كالناس ، واشربْ وكلْ من هذه الصّور

ويقول أيضاً :

إذا الشيخُ والقسيس لم يكرما النهـــى	وأحكامه ، فليبرأ الدينُ منهمـا
إذا أنت أديت الفرائضَ كلهـــــا	ولم تَحْو حُسنَ الخَلق لم تك مسلما

ويقول كذلك :

كافــرٌ يعشق المكارم ، خـــيرٌ	من لئيم يغوصُ فى الإيمـــــان

وكم له من حملة على من يفرّقون بين الإخوان فى الوطن الواحد باسم الدين ؛ كقوله يعنف أهل لبنان لعدم اشتراكهم فى الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥ — ١٩٢٧) :

أبنـاء يعربَ إخـــوان إذا قعدوا	للحادثات ، وإخوانٌ إذا قاموا
إخوانكم وذووكم ليس يفصلهـــم	عنكم لدى غِيَرَ الأيام إسلامُ
إن كان يأمر دينٌ بالعـــــداء لهم	فالكفـرُ بالدين للديان إعظامُ

وقولــــه :

ما خطط الديـنُ التخومَ لأمـة	إلا وقد نخـر الفساد عظامها

وأيضـــاً :

فلو أوصى بكره العرب ديـــنٌ	لكنتُ إذن إمامَ الملحدينـــا

وهذا الشاعر نصر سمعان يشترك فى حفلة أقيمت بمناسبة عيد المولد النبوى فى البرازيل ، فيستهل تحيته لهذه الذكرى المجيدة بقوله فى خطبة تخللتها مقاطع من الشعر :

كوكب رحّب الوجودُ به يـــو	مَ تجلى على الوجود شعاعُـهْ
كلما مرّت العصـــورُ وغارَتْ	فى مهاوى الزّمان زاد ارْتفاعُـهْ
شهـد اللهُ أننــا فى سبيل الـ	حق والمجـــد كلنـــا أتباعُـه

وفى أثنائها يشكو إلى الرسول من تقاعس أمته فى حاضرها ، فيقول :

فلا عُمَرٌ تـــراه ولا عـــلىّ	يقودُ إلى مراقى العـزّ جنْـدَكْ
وغايـــة ما تـــرى أشتاتُ شعب	تردّى فوق بُرد الحيف بُـــردكْ

أعيـذك أن تكون رسول قـــومٍ أضاعوا ما وقفتَ عليه جهـدَكْ
فقم ، إنّ العروبـــةَ رهـــن ضيم أطال وصاله وأطلت صـــدَّكْ

* * *

وحين أعلن الدستور الجديد فى سوريا عام ١٩٥٠ ، وأعلن فيه أن دين الدولة الرسمى فى سوريا هو الإسلام ، لم يجد المهجريون فى ذلك ما كانوا يصبون إليه من إصلاح ووحدة وطنية . فقامت هنالك ضجّة كبيرة ، وارتفعت الأصوات تطالب بأن يكون الدين لله والوطن للجميع . وفى هذه المناسبة قال جورج صيدح من قصيدة بعنوان « دين الدولة فى دستور سوريا » :

تُحاسِبُنى دمشقُ على ضمـــيرى فياليتَ الحساب على الأيـادى
وتحسبنى دخيـــلاً فى حمـــاها كأنّ الضاد فيها غير ضادى
ذرينى يا دمشـقُ اعِـدَّ لحـدى بأرض الملحِدين من العبـادِ
فدينى غير دينك لم يفـــرّق وليـــداً عن وليـــد فى المهـادِ
ولم يشرك بحبـــك أعجميـــاً وينبـــذ نسل غسان وعـــادِ
ذرينى أعبـــد الوطنَ المفـــدّى على شرع التضامـــن والتفادى
خيالاً صـــورة الفيحـــاء فيـــه وألـــوان الحواضر والبـــوادى
أحَـدّق لا أرى فيـــه جراحـاً يضمدها الأساةُ عـلى فسادِ
ولا أثـــر الصليب عـــلى يديـه ولا أثـــر الهلال عليـــه بـادِ
ذرينى أبعث الذكـــرى نذيـــراً لشعب مـــن خلائقـــه التمادى
بنى أركانَ عزّتـــه اتحـــادٌ ويأبى أن يعيش على اتحـــادِ
وما استسلامه للـــــدين إلاّ كتسليم السلاح إلى الأعـــادى
إذا نزلت بساحتـــه عـــوادٍ أيَعْصمه الكتابُ من العـــوادى ؟
دعـــوا سنّ الشرائـــع والفتاوى وسنّوهـــا سيوفاً للجـــلادِ
أقلُّ الديـــن فقْهٌ واجتهـــادٌ وأكثره استبـــاقٌ للجهـادِ

٩ – الوصف والتصوير
(١) فى أدب المهجر عامة

ليس الوصف شيئاً جديداً فى الأدب العربى ، ولا فى أدب أية أمة من أمم الأرض ، فهو من العناصر الأساسية التى يعتمد عليها الأدب ، للسموّ بأسلوبه ومادته ، ولتغذيته بعناصر التأثير والنفوذ إلى النفوس والمشاعر ، وصبغه بالصبغة الفنية وبالجمال الأخاذ .

وفى تاريخ الأدب العربى كثير جداً من النماذج الجياد من الأدب الوصفى والتصويرى البارع ، كأوصاف الرياض ، ومجالس الطرب وغيرها ، والأوصاف الوجدانية الغنية بالشعور والعاطفة . وحينما نشأت المدرسة الأندلسية ، التى اعتمدت قبل كل شىء على رقة التعبير عن أحاسيس الوجدان ، وعن الشعور بجمال المخلوقات ، ونقلت الشعر من التقليدية إلى مقاطع غنائية تسيل رقة وحناناً وعذوبة ، كان شعر الأندلسيين الغنائى الرقيق يعتمد كثيراً على الصور والأوصاف الجميلة اللطيفة . ولكن هذا الغنى بالصور اللطاف فى الأدب العربى القديم ظلّ محدود المدى ، وفى موضوعات ونواح من الفن معينة ، لا شمول فيها ولا امتداد ، ولا عمق . فلم تكن تتعدّى ، إلا فى ما ندر ، أوصاف الرياض والخمر ومجالس الطرب والأنس ، والتعبير عن خلجات الوجدان فى الحب والألم ، وبعض أوصاف الحروب ، ومزايا الممدوحين والمرثيين .

فلما ظهرت المدرسة المهجرية اعتمدت إلى حدّ كبير على جمال التصوير فى الشعر والنثر على السواء ، ولكن على مدى كبير من رحابة الأفق الإنسانى ، ودقة الإحساس بشتى نواحى الحياة والمجتمع ، والجمع بين العاطفة المشبوبة ، والفكر الموجّه الحر ، والخيال الخصيب المجنّح ، مع عمق وحيوية عظيمين . والمدرسة المهجرية تمتاز بهذا كله عن سائر عصور الأدب العربى الماضية ، ذلك لأنها كانت بداية موفقة كل التوفيق لصحة إدراك معنى الأدب والشعر ،

وصلتهما بالحياة والطبيعة وارتباطهما بالفن والجمال ، ولتقدير القيم الأدبية والفنية الصالحة للحياة .

فإذا كان التصوير فى الأدب عامة ، دعامة كبرى من دعاماته ، تسبغ عليه أفانين من الرقة واللطف والجمال ، وتترك فى النفس أعمق الآثار ، فهو فى الأدب المهجرى خاصة إحدى مزاياه الجميلة التى برع فيها ، وقدّم منها ألواناً عجاباً فى مختلف صور الحياة ، ونوازع النفس البشرية ، والفكر الإنسانى .

ومن هذه الصور البوارع ، القطعة النثرية التالية لجبران خليل جبران — والقطع التصويرية عند جبران هى عماد أدبه وفنه ، لأن التصوير هو ميزته الكبرى — وهى على لسان « الجمال » يصف نفسه : « أنا دليل الحب ، أنا خمرة النفس ، أنا مأكل القلب ، أنا وردة أفتح قلبى عند فتوّة النهار ، فتأخذنى الصبية وتقبلنى وتضعنى على صدرها . . أنا ابتسامة لطيفة على شفتى غادة : يرانى الشاب فينسى أتعابه ، وتصير حياته مسرح أحلام لذيذة . . . أنا نظرة فى عين طفل ، تراها الأم الحنونة فتسجد وتصلى وتمجد الله . تجليت لآدم بجسم حواء فاستعبدته ، وظهرت لسليمان فى قدّ حبيبته فصيرته حكيماً وشاعراً ، ابتسمت لهيلانة فخرّبت تروادة ، وتوّجت كليوباترة فعمّ الأنس فى وادى النيل . . أنا أرقّ من تنهدة زهرة البنفسج ، أنا أشدّ من العاصفة . . » .

وفى وصف جبران « للقبلة الأولى » صور روائع من الخيال البعيد الانطلاق . يقول جبران : « هى الرشفة الأولى من كأس ملأتها الآلهة من كوثر الحب . هى الحد الفاصل بين شك يراود القلب فيحزنه ، ويقين يفعمه فيغبطه . هى مطلع قصيدة الحياة الروحية ، والفصل الأول من رواية الإنسان المعنوى . . . هى كلمة تقولها الشفاه الأربع معلنة صيرورة القلب عرشاً ، والحب مليكاً ، والوفاء تاجاً . . . وإذا كانت النظرة الأولى تشابه نواة ألقتها آلهة الحب فى حقل القلب البشرى ، فالقبلة الأولى تحاكى أول زهرة فى أطراف أول غصن فى شجرة الحياة » .

هذا وشل من فيض ممّا تزخر به مؤلفات جبران من روائع الصور ، التى

يشترك فى نسج أبرادها خيال خصيب ، وقلب رحيب ، وشعور مستوفز دفاق ، وفكر موهوب خلاق . وفى الواقع ان فى اوصاف جبران وتصاويره النثرية جمالا وموسيقى وفنا هى السحر الحلال ؛ فهى شعر فوق الشعر ، وطرب ونشوة فوق فنون الطرب والنشوة ، يدغدغان أعمق خلايا الحس فى النفس . فإذا عزف جبران على اوتار الألم ، تجاوبت أصداء ألمه فى النفوس ، وإذا تهلل تجاوبت أصداء تهاليله فى الصدور . ولا عجب فجبران فنان قبل أن يكون كاتباً ، وفى هذا سر إبداعه .

ويشترك ميخائيل نعيمه مع جبران فى هذه المزايا ، فقلمه ريشة رسام قبل أن يكون مرقماً لكتابة الألفاظ . ومن شاء أن يعرف إلى أى مدى بلغت براعة نعيمه التصويرية ، فليقرأ كتابه عن حياة جبران ، وليقف خاصة عند وصفه لمدينة نيويورك ، أو وصفه لمارى هسكل أو لميشلين ، فهناك صور من الفن عجيبة الألوان ، ساحرة الظلال والخطوط .

وأنقل فيما يلى قطعة من رسومه النثرية فى كتابه « البيادر » : « ومن صخور السفوح ما عبّد به صنين الطريق التى يسلكها حبيبه البحر عند عودته من زياراته العديدة له . . . »

« فى الصيف ما ينفك البحر يغمر بأنفاسه وجه صنين : فآناً سحاب ، وآونة ضباب ، وآناً ندى ما أظن جنة عدن عرفت ألطف أو أخف منه . أما فى الخريف ، وقد راح صنين يستعد لغفوة الشتاء ، فيصعد إليه البحر مراراً ، ويغسله من أم رأسه حتى إخمصيه كأنه العروس تُعَدّ للزفاف . وياتى الشتاء ، فيطير البحر إلى صنين ، ليغفو وإياه غفوتهما الطويلة البيضاء . ويجىء الربيع ، فيستفيق العروسان ، ويعود أحدهما إلى شواطئه فى الطريق التى رصفها له الآخر بفلذات من كبده » . .

ونأخذ أيضاً شعر أبى ماضى ، فنطالع فيه سلاسل متواصلة الحلقات من الصور الفواتن ، يستمدها الشاعر من الحياة والطبيعة ، ويخلع عليها من شعوره العميق بالحياة والطبيعة ، ومن خياله الخصيب فنوناً من الفتنة والبهاء . فإذا قرأنا له « السجينة » أو « العليقة » أو « فلسفة الحياة » ، أو « الطلاسم »

او « الطين » أو « ابن الليل » أو « المساء » أو « الحكاية الأزلية » أو « القفر » او « بين الجزر والمد » أو ما شئنا من قصائده الكثيرة فى دواوينه الخمسة ، التى تزخر بالإبداع والروعة ، فإننا نجد لديه كنوزاً غالية من اللوحات الفنية .

نأخذ قصيدته « الحكاية الأزلية » مثلا ، فإذا أمامنا سلسلة من الصور العميقة الإحساس ، البارعة الخيال ، لثمانية أشخاص يمثلون بنى الحياة ، او قسماً كبيراً من بنى الحياة ، وكل صورة منها تتألف من مجموعة من الصور الشعرية الزاهية . فنى عتاب الجارية لربها :

إن أخطأ الخزّاف فى جبـــله الـ طين فأىُّ الذنْب للآنيـــه ؟

وفى قول الفتى الشاكى :

عبءٌ على نفسىَ هـــذا الصبى الجائش المستوفـــز الطـامى
يزرع حـولى زَهـرات المـنى وشوكها فى قلبى الـــدّامى

وفى قول الحسناء :

وجهى سنىٌّ مشرقٌ ، إنمـــا مرعى عيون الخلق هذا السَّنى
حظّىَ منـــه حظٌّ ورد الـــربى من عطـره الفوّاح ، والسوسن
ومثل حظ السرْو مـــن فيئـــه والطير مـــن تغريدها المتقَـن

وفى شكوى الغنى من عبوديته لثروته :

فاستعبدتنى فى زمـــان الصبى وأوقـرت بالهمّ شيخوخـــتى
قد ملكتنى قبلمـــا حـــزتُها وملكـــتنى وهى فى حـــوزتى
كنحلـــة أمسكهـــا شهدهـــا مـــن الجناحين فلم تفلتِ
كم فى عباب البحـــر من سابح قد مات ظمـآن إلى قطـــرةِ

وفى قول الأبله فى عتابه لربه ، لأنه خلقه بلا عقل بين دنيا من ذوى العقول :

... أم أنت كالحقل ... على رغمـــه ينمـو مع الحنطة فيه الزؤانْ ؟

فى هذه كلها ، وفى سواها مما لم نورده ههنا ، رسوم فنية رائعة تدهش القارئ بعمق إحساسها وخصب خيالها ، وإبداع تصويرها وتحليلها . ومثل هذه الصور الغنية بالشعور والعاطفة والفن ، تدلّ على عبقرية خلاقة مبدعة ، وهى تحتاج قبل كل شىء إلى امتداد فى الخيال ، وخصب فى التفكير ،

وعمق فى الشعور ، وانفساح فى العاطفة ، لتتسنى للشعر هذه الحيوية الدافقة فى الصور ، وهذا الغنى الوافر فى الجمال الفنى .

ولابدّ لنا ، ونحن لا نزال فى المهجر الشمالى ، من الإشارة إلى ما فى أدب غير هؤلاء من أبناء المهجر الشمالى ، من الصور الحية ، مما لا يتسع المجال لسرده . فنذكر بنوع خاص قصيدة « النعامى » لنسيب عريضة ، وسائر قصائد حيرته التى يصور فيها حنينه إلى المجهول ؛ وقصيدة « المهاجر » لرشيد أيوب ؛ و« أمى » – نثر – لأمين مشرق ؛ وعداً كبيراً من قصائد الريحانى المنثورة فى « ريحانياته » ؛ و« المهاجر » لمسعود سماحة ؛ و« الحب » لندرة حداد . وقد وصف ندرة حداد « الحب » فى قصيدتين جميلتين فى ديوانه « اوراق الخريف » .

أما فى المهجر الجنوبى فقد نبغ عدد من الشعراء الذين اجادوا فى رسم الصور الشعرية البارعة ، التى تصدر عن طبع أصيل فى الفن والشاعرية . ومن هؤلاء الشاعر القروى رشيد سليم الخورى . وقصيدته « أقحوانة أبرنكا » مثلا ، فيها رسوم وتصاوير غنية بالصدق والإحساس ، كقوله يخاطب الزنبقة :

زنبقـةَ الوادى ! عليك السلامْ ... يا آية اللطف وروح العفافْ !
أيــن مضى ذيالك الابتسـامْ ... وما لهذا الثغر يشكو الجفافْ ؟
هل نقض الزّنبقُ عهـــدَ الغرامْ ... أم أجّل النرجس يوم الزّفافْ ؟

او قوله مخاطباً زهرة « لا تنسنى » :

ما لك يازهـــرةَ « لا تنسنى » ... هل نسى المحبوب عهد الودادْ ؟
قد يذكرُ الناسى ، فلا تحـــزنى ... فالعهدُ بالزهـر رقيقُ الفــؤادْ
يكسر قلبى رأسك المنحـــنى ... دون وساد ، ليت رأسى وسادْ ؟

ولقد عرف المهجر الجنوبى شاعراً شابا – طار عن الأرض قبل أوانه – كان شعره غنيًّا بالوصف والتصوير ، أو هو يعتمد على الوصف التصويرى كدعامة كبرى للشعر الجيد لا تنفصل عنه ولا يجود بدونها . ورسومه الشعرية تعتمد على الصدق فى الإحساس وفى التعبير ، كما تعتمد على موهبة كبيرة من الخيال المتفجر الذى لا ينضب معينه . ذلك الشاعر هو فوزى المعلوف الذى سارت

قصيدته « على بساط الريح » فى الآفاق ، لما فيها من حيوية متدفقة ، وتصوير جميل . ونحن نختار شيئاً من قصيدة له بعنوان « بائعة الهوى » ، ففيها براعة تصويرية فائقة :

غانيـةٌ من بائعـات الهـوى ... فى بردتيها كلُّ غصـن جميلْ
كان عليها حسْنُها فى الصبى ... ويلاً ، فضلّت عن سواء السبيل
مالتْ وقالتْ . . أنت يا شاعرى ... صِفْنى وقلْ ، هل لقوامى مثيلْ ؟
اليس غصناً ؟ قلت . . لم تخطئى ... لكنـه لكل ريـح يميـلْ
قالت : وعينى ، إنها نجمـةٌ ... رجراجةٌ فى ظلّ جفنى الكحيلْ
قلت : جمادٌ كنجـوم الدجى ... عينك لا رحمـة فيها تسيلْ
قالت : وشعرى فاحمٌ كالدجى ... يغفو به الصبّ بليل اليـلْ
فقلت : لم يسودّ لو لم يقـعْ ... عليه من روحك ظلّ ظليـلْ
قالت : وقلبى ، إنـه طائـرٌ ... فى نبضة شدوٌ وفيـه عويـلْ
فقلت : حقًّا إنـه طائـرٌ ... فهـو على كل السواقى نزيـلْ
قالت : وخـدّى ، إنـه وردةٌ ... ما خلقت كغيرهـا للذبـولْ
قلت : هو الوردةُ لكنهـا ... مشاعةٌ لكل باع طويـلْ
قالت : وجسمى فهو ذوب الندى ... قلت : لو العفة فيه تجـولْ
كان نقيا كالنـدى إنمـا ... القت به الشهوة بين الوحـولْ

والذى يقرأ هذه القطعة – وهى ليست سوى نموذج صغير جدًّا لشعر فوزى المعلوف – يستطيع ان يتبين أى جمال وصفى كان يترقرق زاهياً فى شعر هذا الشاب ، أو هذا الحسّون الذى طار عن الروض وحنجرته ملأى بالأغاريد ؛ ولكنه بما سكبه من أغاريد – على قلّتها – ترك له فى دنيا الضاد تلاميذ ومعجبين ، ومدرسة شعرية خاصة تقوم على الصورة والنغم والانسجام ، لإيصال الفكرة او الإحساس إلى قلب القارئ وحسه .

وكذلك وفق اخوه شفيق فى خلق عدد كبير من اللوحات الروائع فى شعره ، ولا سيما فى مطولة « عبقر » التى هى ايضاً مجموعة رسوم فنية ، غنية بالإحساس والجمال كما هى غنية بالرقة والموسيقى والخيال .

ولرياض المعلوف قصيدة فى وصف المصدور ، وفق كثيراً فى حبكتها وفى معانيها المؤثرة ، فيقول فيها :

هو يمشي والموتُ فى خطـواتهْ ... عاثر الحظ بانتظـار مماتِهْ
ويريد الكلام والـداءُ يـابى ... ناشـراً صـدره على كلماتـه
كلّمـا هاجَ صـدرُه بسعال ... اطعم المـوتَ لقمةً من رفاتِـه
رئـة كالقفير والنحل فيهـا ... مرضٌ ناهشٌ خلايـا حياتِه

ويقول جورج صيدح صاحب ديوان « النوافل » فى وصف ناطحات السحاب فى اميركا :

كُوىً تُطلّ على الاكـوان اعينها ... واذنهـا تستقى اخبـار باريها
انوارها تكشفُ الآفاق معلنـةً ... عن سلعة ربما الاملاك تشريها !

وهو اجود ما وصفت به هذه القباب الشوامخ التى تمتاز بها بلاد الدولار عن سائر البلدان . ومثل هذا الوصف دليل على خيال بعيد جداًّ ، يربط بين المحسوس وغير المحسوس برباط ساحر مفتان .

وارى ان اختم هذا الفصل بتقديم شيء من قصيدة « الراهبة » لإلياس فرحات ، فهى من أجمل اللوحات الشعرية ، وألطفها حساًّ وذوقاً . يبدؤها الشاعر بوصف الراهبة فيقول :

اطلّت من الديـر عند الضحى ... وفى ناظريهـا بريقُ الاسى
فتاة كانَّ الإلـه براهـا ... ليجعلها فتنـةً للنهـى
ولكنهـا فى صبـاح الحياة ... عـرا وجنتَيْهـا شحوبُ المسا
رماها الزمانُ بهجـر الحبيب ... فداوت ضلالَ الهـوى بالهـدى
تصـلّى فتحسبها دميـةً ... من العاج ساجدةً للدّمى
وتلثم تـلك الـدّمى بخشوع ... فيوشكن يلثمنهـا من جـوى

ثم يذكر الشاعر انها خرجت ذات صباح تجمع باقة من الزهر لتزين بها الهيكل ، فرات زهرة نامية فى اعالى الجدار . فاعجبها شكلها ، وازدادت قيمتها لديها عند ما رات انها « تعزّ على من يروم الجنى » ؛ فجعلت تخاطبها بقولها :

أُخيّـةُ ! يهنيـك هـذا السموّ ... وهـذا البهـاءُ وهذا الرضى

ولكـن أما كان أشهى لديـك جـوار الأزاهر بين الـربى ؟
تحـوم عليك بناتُ القفـير وتسعى إليك صبايـا القـرى
لانت تعيشين فى عـزلة فلا فى السماء ولا فى الـثرى
لمـن خلق اللهُ هـذا الجمـالَ ومن يتنشّق هـذا الشذا ؟ !

وفى الليل ، عندما آوت إلى مخدعها ، رن فى قرارة نفسها صدى خطابها للزهرة يقول لها :

وأنت تعيشين فى عـزلـة فلا فى السماء ولا فى الثرى
لمن خـلق الله هذا الجمـال ومن يتنشق هذا الشـذا ؟

إنها ، كما ترى ، قصيدة من عيون الشعر الوصفى ، فلو لم يكن لصاحبها غيرها ، لكانت كافية لتدلّ على شاعرية موهوبة .

وأنت فى الواقع تقع فى أشد الحيرة حين تحاول أن تختار أجمل الصور الشعرية فى الأدب المهجرى : فالجمال كثير بحيث تفقد القدرة على المفاضلة ، فكأنما أنت فى حديقة ملأى بأجمل الورود الناضرة ، فأنت مضطر إلى الاكتفاء بأقرب ما يقع تحت يدك ؛ وكذلك فعلت أنا فى اختيار القطع التى قدمتها ههنا . ولست أشك فى أن هنالك الكثير مما قد يفوقها جمالا ورقة وصدقاً ، غير أننى أكتفى بها لأنها تفى بالغرض .

(ب) الريحانى والأدب التصويرى

على الرغم من كل ما قلته فى البحث السابق ، وما أوردته من شواهد وأمثلة على الأدب التصويرى فى المهجر ، أرانى فى حاجة إلى أن أفرد بحثاً آخر مستقلاً أخص به الأديب الرحالة ، والمفكر العربى المهجرىّ الحر أمين الريحانى ؛ ذلك لان الريحانى ينفرد عن سائر زملائه المهجريين – الشماليين منهم والجنوبيين – بعدد من المزايا ، واهمها – فى رأيى – واقعيته الاجتماعية ، ورحلاته المتعددة فى اقطار العروبة ، ومؤلفاته الكثيرة التى وضعها فى هذه الرحلات بالعربية والإنجليزية

هادفاً منها إلى تعريف العرب بعضهم ببعض ، وتعريفهم إلى العالم ، وإيقاظ وعيهم لتكوين الوحدة العربية الشاملة .

والريحانى بذلك كله صاحب مدرسة مستقلة فى أدب المهجر ، ومدرسته عربية خالصة ، تلبس فى بلاد الدولار وناطحات السحاب ثياب العروبة الحقة دون مواربة ، ولا تحاول أن تتخلى عنها مجاراة للبيئة الغربية ، لأنها لا تخجل من صورتها ولا من ثيابها ما دامت نظيفة الصورة والثياب . هذا فى الوقت الذى كان فيه اكثر إخوانه الشماليين ينزعون فى أدبهم نزعة إيديالية ، وفى الوقت الذى لم يكن فيه العربى يعرف أخاه العربى ، ولا يكاد فيه قطر عربى يعرف شيئاً ذا بال عن الأقطار العربية الأخرى .

وليس من هدفى الآن أن أتحدث عن واقعية الريحانى ووطنيته وغيرته القومية – وهذه أبرز مزاياه – ولكننى سأتحدث عن الوصف والتصوير فى أدبه : الخيالى منهما والواقعى معاً ، وقد أبدع الريحانى فى كليهما ، سواء فى نثره وفى شعره المنثور ، أم فى مؤلفاته الأدبية ورجلاته ؛ ففى هذه كلها صنوف من الوصف الواقعى المجرد ، ومن التصوير الذى يعكس الأحاسيس والانفعالات النفسية ، ويلوّنها ، ويخلع عليها الظلال . وفيها أيضاً الكثير من الزخارف الجميلة ، والصور الجذابة الزاهية لكثير من شئون الحياة والمجتمع .

والتصوير – عندى – فن رفيع ، يضفى على الموصوفات ألواناً وظلالاً ، ويبعث فيها روحاً وحيوية ، ويخلق لها سماوات وجواء تسرح فيها النفس ، ويهيم فيها الخيال . وهو يتناول الأحاسيس والخيالات والأشياء ، ويؤلف بينها تأليفاً بارعاً يثير ويحرّك ، ويفرح أو يحزن .

أما الوصف الواقعى المادى المحسوس فيؤلف القسم الأكبر من تآليف الريحانى ؛ فرحلاته كلها تعتمد على تصوير الواقع فى الأقطار التى كان يرحل إليها ويتجوّل فى أرجائها : فهو يصف واقعها ، وعادات أهلها ، وتقاليدهم ، وحكاياتهم ، وخرافاتهم ، ومجالسهم ، وكلامهم ، وكل ما يمكنه أن يقع تحت بصره أو سمعه فى تلك البلاد .

وهو لا يكتفى بمجرد الوصف لما يراه ويسمعه ، وإنما يمزج ذلك بألوان من

التاريخ . والتعليق ، والنصح ، والتوجيه ، ورغبة الإصلاح .

ومن العبث ان نجيء بأمثلة من أوصاف الريحانى فى رحلاته ، ففى : « ملوك العرب – ونجد الحديث وملحقاته – وقلب لبنان – وقلب العراق » ، أوصاف جميلة . تتخللها الحكايات الطريفة المسلية التى تفوق فى طلاوة سردها وحلاوة تعليقاتها . وخفة روحها ، ما فى القطع الوصفية الخالصة من الجمال والرشاقة والطرافة . وهذه الحكايات والتعليقات نفسها ، بكل ما فيها من الدعابة والطلاوة ، ليست لدى الريحانى سوى ألوان من الوصف الجميل ، أو متممات لما يصفه من مشاهد رحلاته ، فإذا الرحلة كلها شريط واحد متسلسل ، تكمل الحكاية والتعليق والطرفة منه الوصف الواقعى المحسوس ، ويكمل الوصف منه الحكاية والتعليق والطرفة .

واجمل ما فى رحلات الريحانى أنها تمتاز بروح الفكاهة والدعابة ، فلا يشعر القارئ بشيء من الملل مهما يضخم الكتاب الذى يرويها ، ومهما تتعدد صفحاته .

خذ مثلاً نموذجاً صغيراً جدا من كتاب « قلب العراق » – الكتاب أتناوله عفواً من بين رحلات الريحانى ، والصفحة أفتحها عفواً كذلك ، لا أتعمد انتقاء الكتاب ولا الصفحة ، فجميع رحلات الريحانى متشابهة فى روحها وفى أسلوبها – الحديث فى الصفحة ٧٩ وما بعدها من الكتاب – الطبعة الأولى – مطبعة صادر سنة ١٩٣٥ ؛ والموضوع هو « فنادق بغداد » :

« اما ونحن الآن فى بغداد للمرة الثانية ، فإننا نتوكل بعد الله على الملازم سردست ليهدينا إلى ما أصلح وانشئ وجدد خلال السنين العشر الأخيرة . إن اولها النُّزُل ذات الأسماء الإنكليزية المضللة : – نزل وندزور – نزل كارلتون – – نزل كرزون – نزل مادجستك – واحسنها واصدقها فى شطر من اسمه هو هذا النزل الذى نحن فيه ، فقد كان اسمه نزل مود ، فتغير بعد ذلك مراراً ، وصار يدعى « تيغريس بالاس » اى قصر دجلة .

« إنه صادق فى الشطر الأخير من اسمه ، فهو على دجلة ، أما الشطر الأول فهو مثل سماء النزل الأخرى كذب وتضليل . ليس فى بغداد اليوم قصور إلا إذا قلنا قول القاموس : إن القصر كل بيت من حجر . او إنه سمى كذلك لاقتصاره

على بقعة من الارض ، بخلاف بيوت الشعر ، فلا ينتقل مثلها . إذن كل بيوت بغداد قصور . أما إذا كان القصر قصراً لقصور الناس عن الارتقاء إليه – لا نزال رهن القاموس – فليس فى بغداد قصر واحد ، لان اعلى بيوتها لا يتجاوز ثلاث طبقات ، ولا يقصر دون ارتقائها إلا العُرج وذوو الفتوق .

« على انه قبيح بنا ذم قصر دجلة ما زال يوسف الكلدانى التلكيفى مديره ، وما زال المعاونون والخدم من إخوانه الكلدانيين التلكيفيين . . . وليس فى قصر دجلة ما قد يكون شائناً لسمعته وفضائله غير ذلك البار الاميريكانى ، الحافل بالكؤوس والقنانى ، المغرى بابنة الدالية وابنة الشعير الغالية ؛ وبكراسيه العالية . ذلك البار الذى يديره ابن عم يوسف ، الحذق اللبق البسام على الدوام ، فيمزج العقيق والذهب والمرجان – الوسكى والروم والجن والجان – ولا يبالى بما يكون من شانها فى رؤوس الشبان – المسلمين والكلدان – الذين يتهافتون على « نعيمة » تهافت الذباب على اديمه . فيا يوسف ويا ابن عم يوسف ، ارفقوا فى الاقل بالشباب العراقيين ، وفرّغوا زجاجاتكم فى بطون الإنكليز ، ولا تتشبهوا فى مطبخكم بهؤلاء الإنكليز ، الذين يحسنون كل شىء فى الحياة إلا الاكل وفن المطبخ ، فيسلقون الخضر ويحسبونها مطبوخة ، ويشوون اللحم ويقدمون معها الابازير والسوائل المتبّلة ليكمل طبخها الضيوف ، كل على مائدته . والعجل والثور والخنزير ، يا يوسف ، إنك فيها عدوّ العرب . تجىء بالثور فى التنك ، وتجلب الخنازير بالصناديق ، وتطبخ منها وتقدمها باردة لابناء لندن – ولا باس – وتفسد بها – ولا رحمة فى قلبك ولا رحمة عليك – معد العرب واذواقهم ودينهم . وماذا يفعل خسّ بغداد بخنزير يوركشير ؟ وما لذة الحبارى ، يا ابن تكليف ، وهى تستحيل فى مطبخك قطعة من « الروزبيف » ؟ » .

هذه قطعة – على طولها – صغيرة من رحلات الريحانى ، يمتزج فيها الوصف بالحكاية والتعليق والدعابة الفكهة ، كنماذج من ادب الريحانى فى رحلاته ؛ ويلاحظ القارئ ما يتخللها من السجع المتعمد الذى كان الريحانى يلجا إليه فى مواطن كثيرة ، لا بقصد التقليد والإعجاب بالسجعة ، ولكن كلون من الوان الدعابة والتنكيت ، ولذلك تجىء بعيدة جداً عن سماجة التكلف فى سجع

المقامات الهمذانية والحريرية واليازجية والمويلحية ، مثلاً ، أو ما جرى مجراها من السجع المتكلف الذى يقصد فيه إلى التجميل اللفظى ، فإذا هو إفساد للذوق الفنى والأدبى ، ومسخ للمعانى والفكر الموحية .

ولا يتسع المجال لتقديم نماذج أخرى من أوصاف الريحانى لمشاهداته فى رحلاته المتنوعة الطويلة ، فنجتزئ بهذا المقدار لننتقل إلى ألوان أخرى من أوصافه التصويرية ، التى يمتزج فيها الخيال بالواقع ، وتترقرق فيها التشابيه والاستعارات والكنايات الجميلة الرشيقة .

وهذه التصاوير التى نعنيها تتناثر بكثرة فى أقاصيصه ، ورواياته ، وقصائده المنثورة ، ومقالاته المتفرقة .

خذ مثلاً تصويره للفجر فى قصة « المكارى والكاهن » :

« هى ساعة الفجر الواقف بين القمر والشمس صفر اليدين ، يشيع نوراً ، ويبشر بنور . هى ساعة الفجر التى تتقدم الحادث الذى حدث كل يوم منذ كانت الارض ، وظل جديداً . . فى مثل هذه الساعة اليتيمة الشريدة التى لا تعدّ من الليل ولا من النهار ، يتصل فجر حياة الإنسان بفجر العالم ، فيحلم إذا كان نائماً الأحلام القريبة من الحقيقة ، ويصوّر الحقيقة إذا كان مستفيقاً ، فى أشكال تقرب من الأحلام . وفى مثل هذه الساعة يفنى ويتجدد جزء كبير من الجنس الإنسانى . . . ويكتب القبر والمهد اسميهما فى سجل الله ، ويفترقان بعيد اجتماعهما . هى ساعة التحول والتجدد ، ساعة يقبل الموت الحياة فيريحها من القديم البالى ، ومن الفاسد العقيم ، وساعة تجىء الحياة بالجديد الطاهر ، السليم النشيط ، الجميل » .

هذه صورة يجتمع فيها الخيال الجميل ، بالتأمل الرائع ، فتتألف منهما لوحة زاخرة بالإيحاء والتأثير الروحى العميق .

وفى ما يلى صورة أخرى للجامع ، وهى صورة يمتزج فيهما الواقع بالخيال ، والتأمل بالإيمان ، والعقل بالإحساس ، فتتألف هذه كلها فى لوحة واحدة ، تبهرك ببساطتها كما يبهرك ما يخلعه عليها الحس الإنسانى العميق من الألوان والظلال الساذجة الساحرة :

« لم أرَ بين سائر أماكن العبادة التى أعرفها – وقد حملت نفسى المنسحقة وركبتىّ التعبتين إلى هياكل عديدة – أفضل من الجامع – وما أدراك ما الجامع ؟ هو المكان الذى يؤثر علىّ بديموقراطيته أكثر من سواه ، لما فيه من شواعرها المتنوعة ، فليس فى الجامع ما يداهن الأغنياء ، أو يكسر قلوب الفقراء ، أو يردّ ثقيلى الأحمال ، أو يغفل الورعين . . . هنا درويش يتمتم قائلاً : بسم الله الرحمن الرحيم ، ويعدّ خرزات مسبحته إلى أن تصل نفسه إلى درجة الغيبوبة ؛ وهناك فقير يتثاءب متبعاً تثاؤبه بقوله : يا الله ! يا كريم ! ويخر مكبًّا على وجهه ، وهناك بدوى ممدد تحت الرواق كأنه جثة هامدة .

« الجامع ميناء يرتاح إليه الشحاذ والأمير ، وهيكل يضم المؤمنين ، ونادٍ يقبل أولاد الله على السواء ؛ هو حيث يعثر المنبوذ على حجر يسند إليه رأسه ، فتكتنفه رهبة القبة الواسعة التى تعلوه . وما يتخلل سكينة ذلك المكان الرهيب إلا كلمات : يا الله ! يا كريم ! التى تدفعها الصدور وقتاً فآخر . . . وإن النفس فيه لتخشع من هذا السكون ، ويسبح العقل فى العلويات فينبه النفس بلا صنوج ولا أجراس ، بلا آلة موسيقية ولا جوق مغنين ، بلا رسوم ولا تماثيل ، ولكن بأضواء الإيمان الدائمة التى لا تطفأ ، تندفع النفس لتجد سبيلاً لها من خلال السكون الفائق الوصف ، والرهبة التى لا تحدّ ، إلى العزة الإلهية ، إلى الإله الواحد ، إلى الله » .

الصورة ، كما يرى القارئ حسية حقيقية إذا شاء ، وروحية خيالية إذا شاء أيضاً ؛ ولكن جمال الروح الذى صيغت به ، والأسلوب الذى سكبت فيه ، يجعلها أعمق تأثيراً من الواقع ، ويجعل للواقع نفسه جمالاً فائقاً ، من جمال الإيمان والخشوع اللذين يوحى بهما ويدعو إليهما .

ليس فى كل ما رأينا من الأوصاف والصور شىء من وصف مجالس الطرب ، ولا الخمرة ، ولا مجالى الطبيعة ، ولا مزايا الممدوحين والمهجوّين والمرثيين . ولكن هناك لوحات جميلة جداً من الأدب الجديد الحى الذى جاءنا به أدباء المهجر ، أو أديب من المهجر هو الريحانى .

ولكن الريحانى الأديب والفنان ، الذى كان يرسم لوحاته الرائعة بالألفاظ والجمل ، لم يقتصر على هذه الألوان من الصور ؛ فللطبيعة من أدبه حظها

الكبير . والطبيعة فن كلها ، والقلم القدير الخلاق يستطيع أن يبدع ما يشاء فى نقل صورها ورسومها ، وأن يتفنن ما يشاء فى تلوينها وتجسيدها .

وقد فعل الريحانى ذلك فى كثير من قصائده المنثورة ، ومقالاته التأملية ، ونجوياته الهامسة .

خذ قصيدته المنثورة « معبدى فى الوادى » مثلاً ، وتأمل جمال الصورة الشعرية التى يرسمها قلمه الفنان فى شكل نجوى هامسة رقيقة عذبة :

« إيه أمّى الطبيعة ، جئت أجدّد معك آمال الحياة وسرورها
جئت أجدد عهدى وإيمانى مع كلاً الحقول وزهورها
وقفت على ضريح الشتاء ليلاً
فشاهدت هناك مشهداً جليلاً
شاهدت ربة الربيع تقبّل جبين أبيها
فينوّر الأقحوان تحت شفتيها
رأيتها تكتب بدموعها سفر الخلود
فيردد العصفور فى الجلمود
رأيت الأولاد فى الحقول حفاة
يقطفون الزهور لرسول الخير والحياة

* * *

هناك من حَلْق الحسّون الذهبى تتدفق الأنغام الفضية
هناك من منقر الدورى النحاسى ترتفع الأناشيد الشجية

* * *

فى ظل القويسة والغار
وبين الصقر والوزال والخنشار
أبنى لك أيتها النفس هيكلاً من الإيمان
أقيم فيه تمثالاً للوداد والإخاء
وأدعو إليه كل بشر تحت السماء »

* * *

وهل غير الطبيعة الجميلة ما يوحى بالإيمان ، وصفاء النفس ، ووداعة الروح ، ونقاء الضمير ؛ وما يدعو إلى المحبة والرحمة والتعاطف الإنسانى ؟ ! هذه الطبيعة الزاخرة بالإيحاءات الفنية والوجدانية ، وهذا المعرض الزاخر بالتحف الثمينة ، ومباهج العين والأذن والحس .

وإليك صورة أخرى لهذا الشرق الذى أنت وأنا من أهله وبنيه ؛ صورة تحسها أنت وأحسها أنا كما أحسَّها أمين الريحانى ، فعبر عنها لك ولى كما عبر عنها لنفسه :

« أنا الشرق
أنا جسر الشمس
من أعماق ظلمات الأكوان إلى الأفلاك الدائمة الأنوار
تصعد كل يوم على كتفى وتكافئنى مكافأة جميلة
أجل إن فى جيوبى وفى يدى وفى نفسى من ذهب الفجر
ما لا نظير له فى معادن الأرض كلها .

* * *

أنا الشرق
قد جئتك يا فتى الغرب رفيقاً
فى جيوبى وفى يدى أشياء من حقول النفس ومن جبالها
وأشياء من أغوار الحياة
أشياء ترضى الله وترضى الإنسان
وأشياء لا ترضى الإنسان ولا الله
عندى ما يسكن نفسك المضطربة وينعشها
عندى ما يشفى قلبك من أمراض التمدين
عندى ما يبعث فيك عدلاً يتجاوز استياءك
وحرمة لما يقدسه سواك »

وإلى هنا والصورة صورة استسلام مؤمن . مطمئن إلى السماويات والفلسفات

والأديان التى انبعثت من الشرق ، وعزوف عن مجالى المدنيات الغربية ، مدنيات التدمير والإبادة ، ثم تنتفض الصورة فجأة ، وتتمرد على الاستسلام والتعلق بالروحيات ، والجرى وراء الفلسفات والعقائد ، لأن هذه كلها لا تؤمّنه من خوف ، ولا ترد عنه الاعتداء :

« أنا الشرق ، عندى فلسفات وعندى ديانات

فمن يبيعنى بها طيارات ؟ ! »

إن فى هاتين العبارتين صورة للشرق الذى فتح عينيه على حقيقة الحياة ، وعلى مدنية الأقوياء ، فعرف أن القوة هى كل شىء فى الحياة ، وأنه بدونها ليس له حياة .

إنه شرقنا هذا الذى طال نومه حتى سبقته الأمم والشعوب ، فلما استفاق من تخدير المذاهب والفلسفات وجد نفسه مقيداً ذليلاً ، ووجد سكاكين الجزارين تقترب من عنقه للإجهاز عليه ، وأنياب الوحوش المسنونة تتهيأ لتمزيقه . فرأى أن خلاصه منها لن يكون بالمذاهب والفلسفات ، وتمتمات الدراويش والكهان ، ولكنه سيكون بالمدافع والطيارات .

* * *

هذه بعض الصور الشعرية والحسية التى نجدها لدى الريحانى ، وهى صور ضئيلة جدًّا إلى جانب ما تزخر به مؤلفات الريحانى المتعددة من اللوحات الروائع . خذ مقالاته : (وادى الفريكة ، وعلى جسر بروكلين ، وفوق سطوح نيويورك ، وأصوات السكينة) وغيرها وغيرها من « الريحانيات » ومن « هتاف الأودية » — وخذ عشرات أو مئات غيرها مما تضمه مؤلفات الريحانى الأخرى ، من رحلاته . ومن رواياته ؛ فقد كان الريحانى فى جميعها مصوّراً مرهف الحس ، دقيق الملاحظة ، واسع الخيال ، بارعاً فى توزيع الألوان والظلال ، سواء حين كان يرسم مشاهد واقعية ، أو يرسم صوراً من الخيال ، أو يلوّن أحاسيسه تجاه مشاهد الطبيعة ، أو يصوّر خلجات القلوب ، أو أمانى الحياة فى الصدور ، أو مصارع الرجاء فى النفوس .

وهذه ميزة واحدة من مزايا أمين الريحانى الأديب ، وأما ميزته الكبرى فهى أنه كان « عربياً » خالصاً بروحه وإحساسه ، بقلمه ولسانه ، وكانت أعظم أمنية له أن يرى أقطار العروبة تتمتع بالوحدة والسيادة والحرية . ولهذا الهدف كان أمين الريحانى يكتب ، ويحاضر ، ولأجله كان يتنقل بين الشرق والغرب ، ويطوّف فى ديار العروبة كلها دون تعب ولا ملل .